الشعائر التعبدية في كتب الرحالة المستشرقين إلى مكة المكرمة

د. عبد الله بن علي بن أحمد القرني

الأستاذ المساعد بكلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

(Umm Al-Qura University)

المقدمة

الحمد لله الذي شرف مكة وفضلها على سائر القرى، والصلاة والسلام على رسول الله .. أما بعد:

فقد اختص الله مكة المكرمة بأن جعلها مهوى أفئدة المسلمين ومثوى محبتهم، وأوجب على عباده الإتيان إليها من القُرب والبُعد، ومن كل فج عميق، فليس في بقعتها شيء مما تشتهيه النفوس من الثمار والبساتين والأنهار، ولا في الطريق إليها ما تتطلع إليه القلوب، بل كثيراً ما يكون في طريقها من الخوف والتعب، والجوع والعطش واللأواء ما لا يعلمه إلا الله؛ و مع هذا فقد جعل الله لمكة في أفئدة المسلمين المحبة والتعظيم، فالناس مع مكة بين حب وتعظيم، فهم يثوبون إليها على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، فمكة هي قلب العالم الإسلامي النابض، ورمز وحدته، وذاكرة قوته وانتصارهعلى الجاهلية والظلم، فهي سيرة عبر الزمن للتذكير بعوامل العزة والنصر.

والرحلة إلى مكة ورؤية فجاجها ومشاهدها رحلة إيمانية ليس لها نظير، ومنظر الزائرين من الحجاج والمعتمرين له أبلغ الأثر في النفوس، فلا يُعلم تجمع بشري تختلف فيه اللغات والأجناس وتتوحد فيه الوجهة واللباس، كما يكون في مكة، وذلك مما يحث الباحث على النظر والتفكر في أسرار مكة، وسبر أغوارها والاطلاع على ثقافتها معارفها.

وتعد الرحلات إلى مكة ذات أهمية بالغة في بيان الحالة الثقافية لمكة، لما حوته من تصوير بديع عن أحوال مكة وأهلها، وأحوال الزائرين إليها، بوصف دقيق متقن، يبدع فيه الرحالة بحيث يُري القاري صورة متكاملة رسمها الرحالة بريشة كلماته المتناسقة عن مكة وأهلها وأماكنها وشعائرها والزائرين لها، فكتب الرحلات عين على الثقافة والجغرافيا والأدب والفنون والشعائر التعبدية، وهي جديرة بالاهتمامامما فيها من الاستقلالية غالباً في وصف المجتمعات وثقافاتها، مما يجعل الباحث في الثقافة يهتم بمضامينها دراسة وتحليلاً. لذا رأيتُ إفراد هذا البحث لموضوع: الشعائر التعبدية في

كتابات الرحالةالمستشرقين إلى مكة المكرمة، نظراً لثراء ما كتبوه من خلال مشاهداتهم للشعائر التعبدية خلال رحلاتهم إلى مكة المكرمة ورؤيتهم لها وانطباعاتهم عنها، وما بدر من بعضهم من فهم مغلوط لبعض صورها..

أهمية الموضوع، وأسباب الدراسة:

تظهر أهمية البحث من مكانة موضوعه وموضعه، وما اختص الله به مكة من الخصائص الكبرى التي لم تُجعل لغيرها، والشعائر التعبدية التي شرعت فيها وبعضها لا تكون إلا في بقاعها، لا سيما أن فيها بيت الله الحرام، وما تميزت به مكة من مكانة سامقة، يحتاج معها الباحث إلى المعرفة بها وما جاء في حديث الرحالة عن الشعائر بها، حيث كان لمكة من الرحالة أوفر الحظ والاهتمام على مرّ القرون المتتالية؛ مما يجعلنا نكتشف من خلالها صورة ثقافية متكاملة عن مكة المكرمة لاسيما ما يتعلق بالشعائر التعبدية.

أيضاً هناك الاهتمام الشخصي من الباحث بمكة وحرمها والمشاعر التعبدية التي تصدح في أرجائها، ورغبته بنشر آراء الرحالة الغربيين المتعلقة بالشعائر التعبدية في مكة المكرمة لما لذلك من إثراء ثقافي.

أهداف الدراسة:

-الوقوف على مدى اهتمامات الرحالة المستشرقين بالشعائر التعبدية في مكة المكرمة.

-التعرف على مناهج الرحالة المستشرقين في كتابة الشعائر الإسلامية وحديثهم عنها.

-استعراض الآراء التي أوردها الرحالة المستشرقين عن الصلاة ورمضان والحج والعمرة.

-بيان نظرة الرحالة المستشرقين للشعائر التعبدية في مكة المكرمة من خلال كتاباتهم.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

حظيت الشعائر التعبدية باهتمامات الرحالة المستشرقين إلى مكة المكرمة، لا سيما الصلاة والحج والعمرة، فكانت لهم كتابات خاصة بها وفق مشاهداتهم ورؤيتهم الغربية ومنهجيتهم الاستشراقية، قد تختلف وجهات النظر حولها ، وعليه فالبحث يثير هذهالتساؤلات:

-ما الصورة التي رسمها الرحالة المستشرقون في كتبهم لمكة المكرمة فيما يتعلق بالشعائر التعبدية؟

-كيف تحدثالرحالة المستشرقون عن شعائر الصلاة وعبادات رمضان؟

-كيف تحدث الرحالة المستشرقون عن شعائر الحج والعمرة؟

-ما نظرة الرحالة المستشرقين للشعائر التعبدية في مكة المكرمة من خلال كتاباتهم؟

-ما رؤية المستشرقين لأثر الشعائر التعبدية على المسلمين؟

حدود البحث:

الحدود الموضوعية: اقتصرت على الرحالة المستشرقين ممن كتب عن الشعائر التعبدية بعد دخوله إلى مكة.

الحدود الزمنية: من القرن العاشر، وحتى القرن الرابع عشر الهجري.

الحدود المكانية: مكة المكرمة وما يتبعها.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث على منهج البحث العلمي الوصفي الذي يسعى إلى جمع الحقائق والبيانات عن الظاهرة المدروسة وتفسيرها وتحليلها، واستنباط النتائج والدلالات المفيدة التي تؤدي إلى إصدار تعميمات بشأن موضوع الدراسة وكيفية الاستفادة منه في الدعوة إلى الله، وهذا ما حاولت جاهداً تطبيقه في بحثي هذا.

الدراسات السابقة:

لم يقف الباحث على أي دراسة في الموضوع، باستثناء بعض الكتب التاريخية عن الرحالة الأوروبيين إلى عدة بلدان في العالم الإسلامي، وكذلك ما كُتب عن بعض الرحالة المستشرقين ومغامراتهم في كثير من البلدان، وكلها تم الاستفادة منها كمراجع لهذا البحث.ولعل أقرب دراسة علمية لهذا البحث رسالة مشعل بن نايف الدهاس من جامعة أم القرى في قسم التاريخ بعنوان: الحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة من خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين دراسة تاريخية وحضارية، فهذه الرسالة وغيرها قد اهتمت بجانب الرحلات من الناحية التاريخية، على أنها اقتصرت على الرحالة المشارقة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وهذا فارق جوهري عن بحثي هذا المحدد بالعبادات.

تقسيمات الموضوع:

قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة،وتمهيد، وأربعة مباحث وخاتمة، استلزمتها طبيعة البحث، وهي كما يأتي:

المبحث الأول: اهتمام الرحالة المستشرقين بالشعائر التعبدية في مكة المكرمة.

المبحث الثاني: الصلاة وشعائر رمضان في كتابات الرحالة المستشرقين.

المبحث الثالث:الحج والعمرة في كتابات الرحالة المستشرقين.

المبحث الرابع: نظرة الرحالة المستشرقين للشعائر التعبدية بمكة المكرمة.

الخاتمة.

قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول

اهتمام الرحالة المستشرقين بالشعائر التعبدية في مكة المكرمة

لا شك في أن عبادة الله تعالى هي أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، وجوهره ولُبُّه؛ فلا يقوم الدين إلَّا بها، ولا يستقيمُ بُنيانه إلَّا بوجودها، ولا يشتدُّ عوده إلا بصلاحها، فالعبادة في الإسلام لها المقام الرفيع والأثر البليغ، ومن الدلائل العظيمة على مكانة العبادة في الإسلام أنها الغاية التي خلق الله لأجلها البشر كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، بل غاية حياة المؤمن كلها هي عبادة الله وحده، كما قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: 162]، فدعوات الرسل جميعها اتفقت على الدعوة إلى عبادة الله وحده، بأوضح الكلمات بقولهم لأقوامهم ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وكما قال تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25]، فهي حقيقة تميز المؤمن عمن سواه، فبها يدرك غاية وجوده، ودوره في الحياة، ومكانته فيما بعدها،﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ومنذ العام التاسع الهجري أمر النبي ﷺأبا بكر الصديق ليحج بالناس، وبدأ النداء في أرجاء مكة، .لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وأردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن

بسورة براءة)[1]، ومنذ ذلك الحين أصبحت مكة وخصوصاً المسجد الحرام محرماً على المشركين أن يصلوه، والدخول للحرم مقصوراً على المسلمين لأول مرة في تاريخ مكة المكرمة.

وقد كان ذلك المنع محفزاً للرحالة المستشرقين في الوصول إلى مكة المكرمة خصوصاً في فترة الحج، وتحملوا في ذلك الكثير من مشاق السفر والرحلة من بلاد أوروبا البعيدة، واضطر بعضهم إلى التوقف في بعض حواضر الإسلام في الشام ومصر؛ لتعلم اللغة العربية، وشعائر الإسلام وخصوصاً الحج، وعاش بعضهم صورة الفقر في سفره، كما كان الغنى صورة بعضهم في وقت مكثه بمكة، وتسموا بأسماء إسلامية، كما زعموا أن أصولهم من بلاد إسلامية بعيدة عن معارف العرب؛ كأفغانستان، أو خراسان، أو المغرب؛ ليتسنى لهم الدخول إلى لمشاعر المقدسة بكل يسر وسهولة، وليشاهدوا أحوال المسلمين فيها بصورة واضحة قريبة.

وكما سافر الرحالة المستشرقون براً وبحراً إلى مكة، فقد كانوا ضمن قوافل الحج الذاهبة إلى مكة بقلوب ملأتها الأشواق والمحبة للوصول إلى الحرم ومشاهدة الكعبة المشرفة، وامتلأت بمشاعر المحبة والأخوة و السماحة فيما بينها، وكان الشعور بالسعادة يغمر الحجاج عند إقامتهم في مكة وبقائهم مع بعض خلال موسم الحج، مع روح التواضع والإحساس بالشرف الذي حازوه بإتمامهم لفريضة الحج، وتشريفهم بلقب الحاج، لكن ذلك لم يكن بذات النظرة في نفوس بعض الرحالة المستشرقين، إذ وصفهم الرحالة "بيرتون" بأنهم بؤساء، يدفعهم حماسهم الديني لشد الرحال سراعاً إلى الديار المقدسة.[2]

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: {وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لكم، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم} [التوبة: 3] "، (64/6[6456]).

(2) ينظر: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة :د. عبدالرحمن الشيخ، طبعت الهيئة المصرية العامة

=

وكان المسجد الحرام وما يُؤدى فيه من العبادات محل اهتمام الرحالة، فهو الجامعة الإسلامية التي تجمع المسلمين على الصلاة من كل الجهات المتقابلة، ويحضرون فيه مجالس العلم والذكر، فقد رأى فيه الرحالة "ليون روش":" مكان عبادة، وجامعة، ومدرسة، وسوقاً، وساحة عامة".(1)

وقد كانت للنظرة الأولى في رؤية مكة ثم رؤية الحرم والكعبة، وما تبع ذلك من مشاهد الحج واجتماع المسلمين نصيب كبير من تدوينات الرحالة ما بين متأثر، ومتعجب، وساخر مستهزئ، وكانت أشد الشعائر التي أخذت نصيباً من ذلك الصلاة في الحرم الشريف، ومشاعر الحج.

فكما أن الأكاديمي اعتكف على دراسة الشرق بلغاته وآدابه، فكذلك الراهب والرحالة المكتشف كان له نصيب من ذلك فمستقل ومستكثر، "فالاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يُسمى الشرق، وبين ما يُسمى في معظم الأحوال الغرب".(2)

وقد أسهم هذا التيار الفكري الغربي في إخراج الدراسات الكثيرة عن الشرق الإسلامي وتراثه، وفي صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي، والتعبير عن خلفية الصراع الحضاري بينهما.(3)

للكتاب،،1995م ، (55/3). وينظر: رحلات في شبه جزيرة العرب ، جون لويس بوركهارت، ترجمة الدكتور عبد الرحمن الشيخ والدكتور عبد العزيز الهلابي ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1413هـ ، جون لويس بوركهات، (237-238).

(1) اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز، ترجمة: محمد خير البقاعي، جداول للنشر، الطبعة الثانية،2014م (109).

(2) ينظر: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، ترجمة: د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأول، 2006م (45).

(3) ينظر: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى 1416هـ (5).

وقد بدأت طلائع المستشرقين مع بدايات النهضة الأوروبية، ووصلت إلى بلاد المسلمين في أواسطها وأقصاها، لا تكلّ، ولا تملّ، بأسلحة الأقلام التي لا تقف عن الكتابة، والملاحظة، والنشر، "إن المستشرقين أعظم طبقة تمخضت عنها النهضة الأوروبية، فهم رضوا لأنفسهم أن يظلوا مغمورين في حياة بدأت تموج بالحركة، والغنى، والصيت الذائع، حبسوا أنفسهم بين الجدران المختلفة، وراء أكداس من الكتب مكتوبة بلسان غير لسان أممهم التي ينتمون إليها؛ لا همّ لهم إلاَّ حيازة كنوز علوم دار الإسلام مع قدرتهم على مخالطة أهل الإسلام في ديارهم، وعلى وجوههم سيما البراءة، والتواضع، وسلامة الطوية والبشر".[1]

وقد كان من أوائل حملة لواء الاستشراق الرهبان الذين خرجوا من كنائسهم للبحث عن علوم الشرق، وترجمتها، وتبعهم في ذلك فئام لبسوا زي التاجر، والرحالة، والصديق الناصح، والمسلم العابد، والباحث في دراسات الشرق حتى يتعرفوا على أخبار المسلمين، ودقائق حياتهم الاجتماعية، فلا يكاد يخطئ عيونهم ملاحظة إلاَّ رصدوها ونشروها، ممّا مكنهم ليكونوا اليد القوية في الفهم والمعرفة بالشرق، ومكامن قوته وضعفه، ونشر ذلك للمستعمرين الغازين، فيتحول الخطاب الاستشراقي من ميدان المعرفة المجردة إلى ميدان وخطاب سيطرة الغرب على الشرق والتعريف به.[2]

كان لمشهد المسجد الحرام وبهائه وبساطته، وعدد المصلين فيه والداخلين إليه تأثير خاص في نفوس الرحالة، ظهرت آثار ذلك في كتاباتهم ما بين متأثر بتلك المشاهد ومستهزئ، ومنهم من أخذ التأثير منه وقتاً قصيراً ليعود بعد ذلك بالسخرية من عبادات المسلمين ومشاعرهم.

(1) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر، مكتبة الخانجي،الطبعة الثانية، 1427هـ (48- 49)، بتصرف.

(2) ينظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود شاكر، (55- 56)، وينظر: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، إدوارد سعيد، (44)، والاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، د. مصطفى السباعي، دار النبراس ودار الوراق، الطبعة الثالثة، 1435هـ، (17)، والاستشراق والمستشرقون، د. عدنان وزان، (17، 24).

ويعد الوصول إلى مكة ومشاهدة الحرم المكي محط آمال الرحالة، وبداية المنتهى لأربهم من سفرهم ، فعنده تحرص أقلام الرحالة في رسم الصورة الأولى لدخولهم للمسجد الحرام، ومشاهدة الكعبة، وجموع المسلمين والطائفين حولها، يقول "بيرتون": " وأخيراً تحقق هدف آمالي ومخططاتي والتي استغرقت أعواماً كثيرة، وهدف رحلتي الطويلة الشاقة لأداء الحج، ولا شك أن الوسط السرابي والوجد الديني يعطيان لهذا المبنى وما عليه من ستارة كالطيلسان جاذبية خاصة، فالكعبة المشرفة لا تمثل عملاقاً أشيب كما في مصر، ولا أثراً يتسم بالتناسق والجاذبية الفنية كما في اليونان وإيطاليا، ولا هي أثر يتسم بالروعة البربرية كما في مباني الهند، لقد كان منظر الكعبة غريباً متفرداً، وقليل هم الذين وضعوا المبنى في اعتبارهم عند النظر إليها، ويمكنني أن أقول بصدق أنه من بين كل المؤمنين العابدين المتعلقين بأستار الكعبة باكين، والضاغطين بقلوبهم على الحجر الأسود، لا أحد أعمق مشاعر من الحاج القادم من الشمال البعيد–يقصد نفسه–".[1]

ويستمر "بيرتون" في وصف أضغاث مشاعره المتأثرة برؤية الكعبة وما حولها من مشاعر التأثر والعبادة بين صفوف المسلمين، وذلك التأثر الذي يقع فيه الرحالة يصيب بعضهم بالدهشة والانبهار عند مشاهدتهم الكعبة، كما يصيب البعض بعدم الرضا والاحتقار لتلك المشاعر ووصفها بالبائسة.[2]

أما الرحالة "كوتلمون"فحين جلس في المسجد الحرام انتابه شعور من الحب والأجلال، والرغبة في التأمل.[3]ومقام التأثر والبكاء حصل لكثير من المسلمين عند رؤيتهم للكعبة أول مرة، وهو ما أثّر في الكثير من الرحالة.

(1) رحلة بيرتون، (36/3).
(2) ينظر: المرجع السابق،(36/3).
(3) ينظر: رحلتي إلى مكة، جيل –جرفيه كورتلمون، (72).

المبحث الثاني

الصلاة ورمضان في كتابات الرحالة المستشرقين

أولاً:الصلاة في المسجد الحرام:

يصف الرحالة المسجد الحرام بالبسيط في بنائه، البالغ الأثر في تأثيره في نفوس من يراه، يقول "بوركهارت" واصفاً المسجد الحرام:" وهو مبنى لا يميزه سوى الكعبة التي يحوطها الحرم، إذ يوجد هناك عدة مساجد أخرى في بقاع أخرى من الشرق مساوية للمسجد الحرام في المساحة، وتفوقه من حيث الجمال المعماري بكثير".[1]

كما أن التأمل في الصلاة عند المسجد الحرام كان له نصيب من الأثر في نفوس الرحالة، حتى قال "بيرتون" عندما رأى جموع المصلين في الحرم عند سماع الخطبة، "وقفت في غاية الدهشة من المنظر الماثل أمامي، فقد كان المبنى رباعي الزوايا المتسع مزدحماً بالعابدين، وقد جلسوا في صفوف طويلة يواجهون جميعاً الكعبة، وألوان ملابسهم البهيجة تفوق ألوان حديقة يانعة، وربما لا يرى المرء مثل هذا المنظر في أي مكان آخر على ظهر البسيطة.. فالمرء لا يرى إلا زحاماً متصلاً من رؤوس وأكتاف".[2]

ويختم "بيرتون": وصف تأثره بما رأه في مكة: "لقد رأيت شعائر دينية في بقاع كثيرة لكني لم أر أبداً ما هو أكثر وقاراً وتأثيراً مما رأيته هنا".[3]

ويقول "بوركهارات" في وصف حال المصلين والطائفين بالمسجد الحرام-" إن ركوع ستة آلاف أو ثمانية آلاف شخص وسجودهم، بالإضافة إلى تجمعهم من أصقاع مختلفة

(1) رحلات في شبه جزيرة العرب، جون لويس بوركهارت، (126)
(2) رحلة بيرتون (86/3).
(3) المرجع السابق، (87/3).

نائية وقريبة، لا بد أن يؤثر في أكثر الناس تحجراً وبروداً، ولا بد أن يبعث في القلب شيئاً من الخشية".[1]

وفي جوف الكعبة يسجل "بوركهات" مشاهداته عن تضرع كثير من المسلمين الذين تمكنوا من دخول الكعبة والصلاة فيها، ويصفها بأنها تضرعات خاشعة صادرة من أعماق القلب، كما رأى وجوهاً مثيرة مبللة بالدموع، وسمع دعواتهم في طلب المغفرة والفوز بالجنة والنجاة من النار.[2]

ويصور "ليون روش" حال الحجاج المجتمعين في الحرم لأداء صلاة الجمعة، بقوله:" أيّ مشهد فريد في نوعه يمثله ذلك الحشد الذي يتضرع إلى ربه بصوت مرتفع، يركع ويطوف حول الكعبة، ولأي مشهد يفوقه تفرداً تُقدِّمه المدينة التي غزاها آلاف الحجاج الذين يمثلون جميع الطوائف الإسلامية".[3]

أما الرحالة "أرثر جون" فيصف صلاة الجمعة في الحرم والذي يعتبره حدثاً غير عادي ويسترسل في وصف ذلك المنظر المهيب بقوله:" أما صلاة الجمعة في الحرم فكانت حدثاً يفرض نفسه على الرائي، فلا يوجد مقدار مربع واحد من المساحة الكبيرة فارغاً، والحركة المتناغمة للحشد خلال الصلاة، والهدوء الغريب الذي يسود المكان، يحكي الخيال، ففي خلال السجود حين تلامس الجباه الأرض لا تسمع إلا هديل الحمام يقطع السكينة..".[4]

ومع تدوينهم لحالات التأثر برؤية جموع المصلين الخاشعين عند الحرم إلا أن "بوركهارت" يسجل تقصير بعض الناس وخصوصاً معظم أهل مكة عن إدراك الصلاة في الحرم الشريف وصلاتهم في بيوتهم و اقتداء بعض الحجاج بهم في ذلك، مع

(1) رحلات في شبه جزيرة العرب، جون لويس بوركهارت، (140).
(2) ينظر: المرجع السابق، (165).
(3) اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ليون روش، (154).
(4) رحلة الحاج المعاصر إلى مكة، آرثر جون وافل، (172).

مخالفتهم لتعاليم الإسلام، كما يرى "بوركهارت" أن المسجد الحرام حاله كحال المساجد الكبرى في العالم الإسلامي حيث يقضي الناس أوقاتهم فيها بعد الصلاة على أنحاء متباينة، فمنهم من يعمر وقته بالصلاة والذكر وأنواع الطاعات الأخرى، ومنهم من يُفرط في ذلك بالحديث عن أشغال دنياه،"وفي المسجد الحرام لا تسمع أثناء الصلاة إلا صوت الإمام، بينما في غير أوقات الصلاة تجد المسجد قد تحول إلى ملتقى لرجال الأعمال يتناقشون في شؤون أعمالهم، وفي بعض الأحيان تجده مكتظاً بالحجاج الفقراء، أو الأشخاص المرضى الممدين في الأروقة بين أمتعتهم البائسة، بحيث يبدو المسجد الحرام كمشفى أكثر من كونه مكاناً للعبادة، ويلعب الصبية في صحن المسجد الواسع، ويعبر الخدم الذين يختصرون الطريق من أحد جانبي الحرم إلى جانبها الآخر.. إلا أن الكعبة بمنظرها المهيب، تجعل بصفة خاصة ملاحظة هذا السلوك السيء والآثم أكثر وضوحاً للعيان، وممارسة هذه الأعمال في هذا المكان ليست بمنجاة من العقوبة فحسب، وإنما تكاد تكون جهاراً، وكانت تلك التصرفات المقيتة كثيراً ما تثير سخطي، لكنها لا تثير لدى المارة الذين يرونها أكثر من ضحكة أو توجيه تأنيب بسيط".[1]

ويشير الرحالة "كوتلمون" إلى التنبيه الذي نبه عليه مطوفه حين دخل المسجد ورأى الكعبة فقال له:" أخي لا تعتقد أنك تعبد هذا الحجر أو هذا القماش أو الذهب الذي يحيط بها، أنت هنا في مركز الأرض، تتجه نحوها جميع الصلوات في العالم الإسلامي، تتجمع كلها في هذا المكان لترفع مباشرة إلى السماء، أنت هنا أقرب إلى الله هذا كل شيء".[2]

وهذا الجلال والمكانة للمسجد الحرام ينبغي على المسلمين في مقابله بذل المزيد من التعظيم له، والبُعد عن التفريط في الأوقات الشريفة التي تكون بين جوانبه

(1) رحلات في شبه الجزيرة العربية، جون لويس بوركهارت، (140). وينظر: (141).
(2) رحلتي إلى مكة، جيل –جرفيه كورتلمون، (72).

بصريفها في الحديث عن قضايا دنيوية، وهو ما أشار له "بوركهارت" بوقوع بعض الناس فيه، فالواجب هو تمام الأدب مع المسجد الحرام، وإنفاق الأوقات فيه على الذكر والعبادة وقراءة القرآن.

فكانت الصلاة في المسجد الحرام ومشهد جموع المصلين من أكثر ما يلفت أنظار كثير من الرحالة المستشرقين، الذين شهدوا على أن ذلك الجمع من أزكى التجمعات الإنسانية والمؤثرة في تآلفه وتنظيمه، وخير المظاهر الدالة على حب المسلمين لدينهم، وحرصهم على القيام بواجباته.[1]

ثانياً: الأذان في مكة:

حين وصل الرحالة "ليون روش" إلى مكة، وقت الأذان، وهو يؤدي فوق سبعة مآذن، تنصب حول الحرم، ووصف أصوات المؤذنين بأنّها بالغة الغاية في الجمال، على عكس ما تحدث به "بوركهات"[2]، فقال "ليون": "ولم أسمع في أي مكان أصواتاً بهذا القدر من الجمال، وتجويداً بهذا القدر من الرخامة"[3].وحين سمع الرحالة "كورتلمون" أذان المغرب في مكة سجل انطباعه المؤثر عن ذلك بقوله: " أستمتع بسماع صوت المؤذنين الذي يرتفع من المنارات الأربع الموجودة في زوايا الحرم منادين للصلاة، ويرفعون أصواتهم بالأذان وهم يدورون حول الشرفات المبنية من الأحجار فوق المنارات الجميلة، فينخفض صوتهم أو يرتفع حسب الوجهة التي ينتشر فيها في الفضاء، تتفق أصواتهم تارة ، وتارة تختلف، ترتفع مخترقة هدوء المساء، تتخللها نبرات

(1) ينظر: موقف المستشرقين من العبادات في الإسلام من خلال دائرة المعارف (الإسلامية) دراسة تحليلية نقدية، رسالة الدكتوراه لفضيلة الأستاذ الدكتور: محمد بن سعيد السرحاني ، (167).

(2) ينظر: رحلات في شبه الجزيرة العربية، جون لويس بوركهارت، (198).

(3) اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ليون روش، (96). وينظر: رحلات في شبه الجزيرة العربية، جون لويس بوركهارت، (198).

صوت شجي يشبه نحيب البكاء، ولا يمكن أن يتصور المرء وجود نغمات إنسانية أكثر دفئاً وانسجاماً وقوة وعذوبة من الأذان..يالروعة المشهد".[1]

وفي أول ليلة وصل فيها الرحالة "إلدون رتر" وصف أذان الفجر الذي سمعه أول مرة في مكة بقوله: " لقد كان هو النداء للصلاة، يرن بصوت ذي فخامة رائعة في المآذن السبع في صمت الفجر الأول".[2]

وفي منى سمع الرحالة "ليون روش" الأذان من أصوات المؤذنين في الخيام، بصوت جميل، فيقول: " وارتفعت من كل حدب وصوب أصوات المؤذنين من عدة مخيمات صداحة رنانة تدعو إلى الصلاة، أصوات نجهلها تماماً في أوروبا وأفريقيا الغربية، بدءاً من القاهرة فقط صار الأذان لحناً ساحراً ".[3]

ومن العادات الموجودة في مكة وقلما تحدث أنه إذا صادف الجو بأن كان غائماً في مكة وقت الأذان، فإن المؤذن يؤدي أذانه بأنغام مثيرة حتى تنجلي الغيوم وتظهر زرقة السماء، كما أن الأذان يختص في مكة بحرص المؤذنين على أدائه بدقة وفن رفيع لا يتأتى للكثيرين.[4]ومما بينته الشريعة أن الأذان من شعائر الإسلام التي يُقصد بها الإعلام بدخول وقت الصلاة، وأن المبالغة في أدائه أو اختراع نغمات خاصة به في أوقات الغيم وغيره ليست مما أتت به السنة.

ثالثاً: العبادة في شهر رمضان في مكة:

(1) رحلتي إلى مكة، جيل –جرفيه كورتلمون، (75).
(2) مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، إلدون رتر، (151/1).
(3) اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ليون روش، (159).
(4) ينظر: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، سنوك هورخرونيه، (419/2).

تميز شهر رمضان في مكة بنوع خاص من الاهتمام والاحتفال به في مكة، وحتى في الطعام الذي جعله المكيون خاصاً في رمضان، وهو أمر لا يكون لغيره من شهور العام.[1]

ومن المظاهر التي قيدتها يراع الرحالة "سنوك" أحوال الناس في رمضان، إذ يحرص بعض المتطوعين لتنبيه الناس إلى الصلاة والتذكير بدخول وقتها، وفي شهر رمضان يضاء الحرم بالقناديل، ويجتمع الناس مجموعات، كل مجموعة مع إمام تصلي خلفه، ومنهم من يحرص على ختم القرآن في شهر رمضان، ويحتفل المصلون في نهاية الشهر بختمه للقرآن، وتوزع الحلوى بهذه المناسبة، وتُقدم للإمام هدية عبارة عن جبّة يقدمها المصلون في الليلة الأخيرة من الشهر، و يكثر العابدون في ليالي رمضان بالحرم، ومن لم يكن يحافظ على الصلاة يكون مداوماً عليها وعلى سننها.[2]وفي رمضان يسارع الناس إلى تقديم بعض الطعام للصائمين، ويرى "بوركهارت" أن مقصدهم في ذلك هو تحقيق الشهرة وأنهم كرماء على نحو خاص.[3]

وفي ادعاء "بوركهارت" لذلك بُعد عن فهم روح الشريعة التي رغّبت أهل الإيمان في الإنفاق خصوصاً في مواسم الخير في رمضان، مع جرأة من لدن الرحالة في الحديث عن نيات الناس بأعمالهم الصالحة دون دليل أو برهان، ولا زال المسلمون إلى وقتنا الحاضر يسارعون في اغتنام أيام رمضان بتفطير الصائمين في الحرم وغيره.

كما يسجل "بوركهارت" حنين المسلمين وحبهم الشديد لمكة، حين رأى حاجاً من دار فور والذي وصل في إحدى ليالي رمضان إلى الحرم بعد رحلة طويلة وشاقة، وكيف أنه أطال السجود شكراً لله حين رأى الكعبة، كما يذكر "بوركهارت" بعض

(1) ينظر: مكة المكرمة أحب أرض الله إل الله ورسوله دراسة في التاريخ الحضاري والاجتماعي، أ.د. حسن بن علي مختار، الطبعة الأولى1434هـ،(68).

(2) ينظر: صفحات من تاريخ مكة، سنوك هورخرونيه، (410/2- 418).

(3) ينظر: رحلات في شبه جزيرة العرب، جون لويس بوركهارت، (150).

القصص عن أهل مكة والتي ليس لها دليل كذكره عن أهل مكة أن الهواء البارد الذي يهب على الحرم في ليالي رمضان بأنه رفرفة أجنحة الملائكة التي تحرس المسجد الحرام، بدون إيراده دليلاً صحيحاً على ذلك إلا ما يتناقله من أفواه عامة الناس.[1]

وفي ليالي رمضان تضاء آلاف المصابيح في المسجد الحرام، ويأتي الناس للطواف، وبعضهم يجلسون لتجاذب أطراف الحديث حتى منتصف الليل،" والمنظر كله يعطي مشهداً رائعاً، وباستثناء غياب النساء، فإن هذا المشهد يشبه تجمعاً جماهيرياً في نصف الليل في أوربا ما كنت أتوقع أن أرى مشهداً بهذا الشكل في حرم إسلامي".[2]

ولا ريب أن تعظيم شعائر الله من الفروض الواجبة على المسلمين، لكن النظرة الغالية للمساجد في الإسلام كالنظر إلى دور العبادة الأخرى، وكأنها مقصورة على أداء العبادة والخروج منها دون الاحتساب في إطالة الجلوس فيها، والتي وصفها النبيﷺ بأنها الرباط، مع ما يصحب ذلك من حديث بين الناس في شؤونهم خارج العبادة.

المبحث الثالث:

الحج والعمرة في كتابات الرحالة المستشرقين

بقيت الجزيرة العربية محل افتتان للغربيين وخصوصاً الرحالة منهم، وكان السبب الأول لهذا الافتتان وجود المدن الإسلامية المقدسة، وطبيعة أهلها وأرضها الصحراوية، وقدم ثقافاتها.[3]فاهتم الرحالة بذكر تفاصيل أعمال مناسك الحج ووصف مشاعرهم فيها، وأحوال الناس المختلفة التي مروا عليها، بل زاد الأمر أن يذكروا بالتفصيل قصة رحلتهم كاملة، ووصف قوافلهم، والأحداث التي مرت عليهم في طريقهم إلى مكة،

(1) ينظر: المرجع السابق، (150).
(2) المرجع السابق نفسه، (95).
(3) ينظر: بلاد العرب القاصية، بيتر برينث، (122).

وهم في ذلك يخطون كل ما يرونه مذيلين كل ذلك بمشاعرهم أمام تلك الشعائر ومشاعر المسلمين تجاهها، فقد جعلوا لمكة اهتماماً خاصاً، لارتباطها بكثير من المشاعر الإسلامية التي يقصدها المسلمون من كل فج عميق، "فالحج يوقع الناس في نوع من الرغبة العنيفة لمعرفة سبب ذلك الافتتان الذي يقود الرجال والنساء والأطفال للقيام بتلك الرحلة المضنية".[1]

وهم يذكرون بتفصيل وتتابع كل المصاعب والمشاق التي تواجه الحجاج في طريق ذهابهم أو عودتهم بحراً أو براً.[2]

ويحاول الرحالة تدوين كل ما يؤثره الحج على رعايا دول الاستعمار، سواء في تعامل المكيين والمسلمين جميعاً فيما بينهم في مكة، أو ما يُحصلونه في مكة من العلم على يدي علماء مكة، أو الكتب الإسلامية التي تُباع في مكة والتي كانت محل احتفاء لدى كثير من المسلمين، فيتيسر لهم نقلها إلى عمق أوطانهم بواسطة الحج.[3]

كما كانت دول أولئك الرحالة تنظر للحج كظاهرة دينية سياسية، فهو مؤثر في تدين المسلمين، ومحافظتهم على الشعائر الدينية، وموطن تبادل افكار المسلمين وإقامة روابط الأخوة الإسلامية، كما أن من أدرك الحج فإنه بفوز بلقب الحاج والذي يمنحه عميق الاحترام بين أهل بلده.[4]بل لقد بلغ الأمر ببعض الدول الاستعمارية كروسيا مثلاً أن تربط بين الثورات التي قام بها المسلمون ضدها بعدد السكان الذين قاموا بالحج من تلك المنطقة.[5]

---

(1) ينظر: المرجع السابق، (194).

(2) ينظر: ستة أشهر في الحجاز، جون فرايركين، (281). وينظر: مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، إلدون رتر، (132/1)

(3) ينظر: الحج قبل مائة سنة، يفيم ريزفان، (15).

(4) ينظر: المرجع السابق، (15).

(5) ينظر: المرجع السابق نفسه، (26).

فكان من مظاهر الاستشراق الاهتمام بشعيرة الحج في الاسلام، وبعث الرحالة للوصول إلى مكة، والكتابة بالتفصيل عن جميع مشاعرها ومواقف المسلمين من ذلك، مع تقديم النصائح والتوصيات المهمة التي من شأنها أن تفيد الحكومات الاستعمارية في التعامل مع المسلمين والتعرف على دينهم، فالحج له شأن مركزي في مكة، في اقتصادها وسياستها وقضاياها الاجتماعية، بل حتى في مهن الناس واهتماماتهم العلمية. (1)

ويمكن أن نبدأ في حديثهم عن شعيرة الحج بمبتدأ الأمر من وصولهم إلى مكة وحتى مغادرتهم منها، وغالباً ما يقدم الرحالة في أوقات الحج ليشهدوا مناسبة الحج العظيمة ويصفوها، وهم في ذهابهم للمشاعر يظهرون بلباس الحاج الراغب في أداء مشاعر الحج بكماله.

ومشهد الحجاج المجتمعين في مكة مشهد فريد من نوعه، فهو يُعد أكبر تجمع بشري منتظم كل عام، ويتقاسم فيه الحجاج السعادة والمساواة والتسامح، وذلك الذي يجعل أيام السفر إلى مكة والإقامة فيها فترة بهجة وحبور، تظهر عليهم السعادة في أدائهم للمشاعر وقراءتهم للقرآن، وحين يتمون مناسك الحج تبدأ معاقد السعادة على محياهم، ويفرحون بلقب الحاج، ويؤملون القبول والمغفرة.(2)

ولا تخلو كتابات بعضهم من تناقضات جلية، حيث يصف "بوركهارت" مشاعر المسلمين وهي تهفوا إلى البيت الحرام لأداء الحج بأنهم يحملون ورعاً يفوق الوصف ومن المحتمل أن يستمروا على ذلك إلى الأبد، لكنه يعود بعد ذلك بأسطر قليلة ليؤكد أن هدف المسلمين في وقته الحاضر وباعثهم على الحج إنما هو الوازع التجاري والتفكير في الربح، في تناقض وتعدٍ في الحكم على نيات الناس

(1) ينظر: الحج إلى مكة – الخبرة الهندية (1500م-1800م)، مايكل. ن.بيرسون، (70-71).
(2) ينظر:رحلات في شبه جزيرة العرب، جون لويس بوركهارت، (238-237).

ومقاصدهم.[1]

وسنعرض لكتابات الرحالة المستشرقين عن شعيرة الحج والعمرة بنوع من البسط في النقاط التالية:

أولاً: مراحل الوصول إلى مكة والطريق إليها:

لا يُخفي الرحالة من المستشرقين وغيرهم وصف المشاق التي تعرض لهم في طريق الوصول إلى مكة والمصاعب التي تواجههم والحجاج الذين معهم، سواء في مشقة الطريق، أم عمليات النهب والسرقات التي يتعرضون لها في المدن التي يستريحون فيها، والطرق التي يسلكونها، مع نزول الأوبئة والأمراض التي تنشر بين الحجاج، واختلاف المناخ والطبيعة التي يعانون منها حال وصولهم لمكة، وهي تحديات كبرى تنتهي ببعض الحجاج بالموت في مكة أو قريباً منها.[2]

وكانت تظهر كتاباتهم عن ذلك في النقطتين التاليتين:

- المصاعب التي يلقاها الحجاج في طريقهم للحج:

قبل الوصول لمكة كان للكثير من الرحالة محطات توقف في الشام أو مصر يتعلمون فيها اللغة العربية، والعلوم والأحكام المتعلقة بشعائر الإسلام خصوصاً فيما يختص بالصلاة والحج، وهم في ذلك يصفون الطريق إلى مكة سواء من جهة جدة أو من جهة شمال أو جنوب مكة بنوع من التفصيل، ويشيرون فيه إلى صعوبة الطريق، وأحوال الأعراب، وتهديدهم للقوافل بالسلب والقتل، والعنت الذي يجدونه في الطريق منهم، مع قلة الماء في الأرض القاحلة.

وحين يصلون إلى مكة يأتي وصفهم الجغرافي لحدود مكة والجبال الحارسة لها، وبعدها عن البحر وأيدي المستعمرين، ووجودها بين الجبال كأسوار عالية محيطة بها،

(1) ينظر: المرجع السابق، (224).

(2) ينظر: الحج قبل مئة سنة، يفيم ريزفان، (60)، (66)، (71).

وطبيعة أرضها المجدبة، ومناخها الحار، يقول الرحالة الروسي "عبد العزيز دولتشين": "اقتربنا بسلامة من مكة التي تغدو الجبال في جوارها أعلى وأشد انحداراً، الوصول مفاجئ تماماً؛ فالمدينة لم تظهر إلا حين دخلناها تماماً".(1)

ويصفها "إلدون رتر" بأنها أكبر مدن الحجاز، وهي مبنية بناء جيداً كمدينة شرقية، لكنها أبعد ما تكون عن الجمال، فهي مدينة عربية صغيرة قديمة ليست جميلة المظهر، فليس بها زخارف أو بنايات عتيقة، لكنها مملؤة جاذبية، وهي محط أعز الآمال الدنيوية لسكان حدائق الجزر العائمة تلك التي في جزر الهند الشرقية". (2)

وحين تبدأ أعلام الحرم وتقترب منه نفوسهم يتفاوت الرحالة في وصف أحوالهم في تلك المشاهد، يقول "علي باي العباسي": "أيقظتني يوم الخميس الثالث عشر من كانون الثاني الموافق للرابع عشر من ذي القعدة من العام 1221 هجرية صرخة فرح، وحين أزحت ستارة الهودج، لمحت في منتصف الليل برحمة من العلي القدير المدينة التي تتجه إليها عيون ملايين البشر في العالم، مكة المحفوظة بين الجبال دون أسوار تشكل هلالاً داكناً مثل الفحم حول بيت الله، الذي يتداخل طيفه الأسود في تاج من القناديل".

ويصف "أرثر جون" مشاعر الحجاج حين الاقتراب من المسجد الحرام وما تحمله من تأثر بقوله:" إن الصمت المسيطر على المكان غريب ومؤثر، فلم نعد نسمع صراخاً أو غناءً أو إطلاق نار، إذ يتأثر الحجاج برهبة المكان فيهدؤون، وتنسل الجمال على الرمال الناعمة دون صوت، ومن الصعب على الغريب أن يفقه كُنه

(1) ينظر: الحج قبل مئة سنة، يفيم ريزفان، (72).
(2) مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، إلدون رتر، (175/1).

مشاعر المسلم عند اقترابه من مكة، فبالنسبة إليه هذ المكان لا يكاد ينتمي إلى هذا العالم فجلال الإله يرنو فوق الجميع مثل تابوت العهد اليهودي".[1]

ويصحح "كوتلمون" نظرة بعض الغربيين إلى الكعبة وأن فيها قبر الرسولﷺ بقوله: "ها هي ذي الكعبة المشرفة تقف شامخة أمامنا بإجلال، محاطة بستارها الأسود المزخرف، والكعبة المشرفة، خلافاً لما هو شائع، فليست هي قبر النبيﷺالموجود في المدينة، إنها بيت الله بالنسبة إلى جميع المسلمين".[2]

ويتحدث "جون كين" عن مشاعره حين عودته لمكة قادماً من المدينة المنورة، "أؤكد للقاري أنني حالما دخلت مكة تنزلت على قلبي السكينة والهدوء، فضلاً عن الشعور بالأمان الذي يعادل شعور العائد إلى وطنه حاطاً رحاله على أحد موانئها بعد رحلة طويلة في سفينة تُبحر بصعوبة".[3]

أما "فارتيما" فيقول عن مكة أنها المدينة ذات الشرف الباهر، ويرى أنها مدينة جميلة قد أُحسن بناؤها، ومنازلها جيدة تماماً، لكنه يعود بعد ذلك فيقول:" ويجب أن تعرف أن لعنة الله –فيما أرى– قد حلَّت بمكة، فالمنطقة المحيطة بها لا تنبت عشباً ولا شجراً ولا أي شيء".[4]

ونظرة "فارتيما" بأن الأرض المجدبة علامة غضب الله كما في أرض التيه لبني اسرائيل، يُظهر تأثره بثقافته النصرانية التي حملها معه وقاس مشاهداته عليها، فمكة هي أرض مباركة آمنة يأتيها رزقها من كل مكان، بل ويأتيها الناس يقصدونها من كل فج عميق، فأي غضب أصابها على ذلك، بل لقد كان بُعدها عن موارد المياه

(1) ينظر: رحلة الحاج المعاصر، آرثر جون وافل، (149).
(2) رحلتي إلى مكة، جيل– جرفيه كورتلمون، (72).
(3) ستة أشهر في الحجاز، جون فراير كين، (257).
(4) رحلات فارتيما، (52).

والزراعة حافظاً لها من تسلط الكفار ووصول أجنادهم إليها، والذين طافوا العالم شرقاً وغرباً يستعمرونه، ويملكون أرضه، ويأخذون خيراته.

- اللقاء الأول بالكعبة ودخول المسجد الحرام:

حال الحجاج عند وصولهم لمكة ما بين مكبر وملبي، وخابت باكٍ، أمَّا الرحالة فمنهم من تأثر وأصابته دهشة النظرة الأولى للحرم والكعبة، مع ما يحف بذلك من التأثر برؤية المصلين الطائفين على اختلاف ألوانهم وأعراقهم، ورؤية بناء الكعبة البعيد عن التصنع والخيلاء، ومنهم من رأى ذلك علامة بؤس وشقاء للناس، يقول "بيرتون": "لقد رأيت شعائر دينية في بقاعٍ كثيرة، لكنني لم أر أبداً ما هو أكثر وقاراً، وتأثيراً ممّا رأيته هنا"[1]، ويتابع "بيرتون" الحديث عن مشاعره عند رؤية المسجد الحرام والكعبة فيقول: "إننا لا نرى في مكة شيئاً مسرحياً مصطنعاً، ولا نرى ألباس الحج لباس الأوبرا، بل كل شيء هنا بسيط ومؤثر يملأ العقل بخشية الله"[2]. ويقول علي باي العباسي:" ثلاث سنوات ونصف من خروجي من أسبانيا، جئت مريضاً ومنهكاً على ظهر جمل لا أحد أكثر تأثراً مني، أمام الأمتار الأخيرة التي تقود إلى قلب الإيمان، الأكثر بساطة والأكثر عمقاً الذي رأيته في حياتي".[3]

ويتابع "آرثر جون" التأثر والمشاعر المتتابعة التي أورثتها رؤية الكعبة والمسجد الحرام: "إن التأثير البارز الذي يتركه هذا المشهد هو تأثير مكان غير اعتيادي، فهو ليس بالباذخ، ولا يمكن وصفه بأنه متكلف، إنما هو جيش في نفس ناظره وروعة الإبهار، يشعر المرء بصورة غريزية أنه ينظر إلى شيء فريد من نوعه، فلا يماهيه أي شيء آخر في العالم، ولا أدري إن كانت الملائكة الحارسة للمكان تقطن المبنى نفسه

(1) رحلة بيرتون، (87/3).
(2) المرجع السابق، (87/3).
(3) علي باي العباسي"مسيحي في مكة"، (226).

أو تحوم حوله، ولا أدري إن كان هذا مجرد اعتقاد ولّده الإيمان المتعلق بالكعبة، لا أستطيع القطع ولا يهم ما هو التفسير لذلك، إنما الذي لا شك فيه أن النتيجة شعور خارق للطبيعة، فيندر أن ينظر حجاج إلى هذا المشهد ولا يتأثرون، فهو يُخضع الأشد طيشاً إلى صمت غير اعتيادي".[1]

فالرؤية للكعبة والتعبير عنها له عبارات خاصة بقلم كل رحالة، فيقول "بيرتون": "لقد ذهبت للكعبة هذه المرة لأستمتع بجمالها.. إن النظر إليها يريح العين.. إنه بيت الله رب إبراهيم، وإسماعيل، وذريتهما، سامية هي، معبرة بكل بلاغة وفصاحة عن الهوى والولوع بفكرة واحدة عظيمة ونبيلة هي التي تبث الحيوية في الإسلام، وتبث القوة والثبات في نفوس أتباعه".[2]

ويتابع "بيرتون" الحديث عن المشاعر التي غمرته أمام رؤية المسجد الحرام، "لقد بدا الأمر كما لو أن الحكايات الشعرية العربية تنطق بالصدق، وأن أجنحة الملائكة- لا نسائم الصباح- هي التي تحرك أستار الكعبة السوداء، إن المشاعر الدينية الفياضة والمتحمسة تؤدي لهذا التصور، أمَّا بالنسبة لي فقد أحسستُ بانجذاب صوفي وإحساس بالرضا".[3]

ويدّون "إلدون رتر" الإيحاءات التي مرت به حين وقف أمام الكعبة: "كان يقف وقفة عظمة بسيطة لصخرة وحيدة في وسط المحيط بكونه رمزاً معبراً جداً عن وحدانية ذلك الإله الذي هذا بيته".[4]

لقد امتد حرص الرحالة بالكعبة أن دخلوها ليصفوها من الداخل، ويذكروا عرضها وطولها بوسائلهم الممكنة، بل إن بعضهم أغرق في وصف كل شيء يشاهده

(1) ينظر: رحلة الحاج المعاصر، آرثر جون وافل، (153).
(2) رحلة بيرتون (46/3).
(3) المرجع السابق، (36/3).
(4) مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، إلدون رتر، (153/1).

عند دخوله الحرم، وكانوا عدسة من كلمات تعبر عن كل ما تقع عليه أعينهم، حتى روائح المسجد وما توضع فيه من أنواع العطور، كما يقول "فارتيما": " والحق أقول لكم إنه من الصعب أن أصف لكم روعة الروائح التي شممتها في هذا المعبد، إنها تظهر كرائحة مشبعة بالمسك، زاخرة بأكثر العطور إنعاشاً وإبهاجاً".(1)

أما الرحالة "أوغست والين" فقد رأى أن الحرم هو قلب مكة النابض، وهو الذي أكثر من التأمل والنظر في جنباته، فقال: "مكثت بضعة أيام فقط، كي ألقي نظرة فاحصة على مكة وعلى المسجد الحرام، وقد بدا هذا المسجد فريداً من نوعه، ومختلفاً عما يراه المرء عادة في بلاد الشرق، فهو مبني بأنماط متعددة، تميل إلى الطراز الهندي الصارخ أكثر مما تميل إلى الطراز العربي الحقيقي.. ولكن المسجد كان بمثابة نقطة مركزية تدور حولها جميع الأحداث".(2)

والرحالة "كوتلمون" يصف الكعبة بأنها تبدو تحت ستارها الأسود داخل بناء المسجد المتألق، أكثر اجلالاً.(3)

كما أن الكعبة وكسوتها تثير لدى بعض الرحالة محاولات للربط بينها وبين العبادات عندها والعبادات لدى أصحاب الديانات الأخرى، فالكسوة للكعبة يربط "بيرتون" التقديس لها وجعل الكسوة عليها بالديانة اليهودية، وذلك- في رأيه- بالنظر إلى أن أوَّل من كسى الكعبة هو تُبع الحميري ملك اليمن عندما اعتنق اليهودية؛ وعليه فنخلص إلى نتيجة كما يقول "بيرتون": "أن بني إسرائيل الذين استقروا في مكة قد ربطوا الكعبة بعبادتهم، والنتيجة الطبيعية أن نبي الإسلام قد أدخل موروثاتهم فيها".(4)

(1) رحلات فارتيما، (54).
(2) عاشق الصحراء أوغست والين، كاي أورنبيري، ترجمة: مارية باكلا، (506-505).
(3) ينظر: رحلتي إلى مكة، جيل -جرفيه كورتلمون، (75).
(4) رحلة بيرتون، (76/3).

وهكذا تبدأ سلسلة من الادعاءات في ربط كثير من مشاعر الحج ببعض الديانات الأخرى، مع ذكر بعض الخرافات والآراء الخاطئة التي لا تقوم على دليل؛ كذكر "بيرتون" أن المسلمين لا يستحبون النظر إلى سقف الكعبة، وأن الكثيرين منهم لا يودون الدخول لجوف الكعبة لأسباب دينية، إذ لا ينبغي لمن وطئت قدمه أرض الكعبة أن يسير حافي القدمين، ولا يرفع النار بأصابعه ولا يكذب، وفي ذلك صعوبة على المرء، وهذا وغيره من المعلومات الخاطئة والخرافات التي يقع فيها "بيرتون" بسبب ربط الديانة الإسلامية بالديانات الأخرى، أو بسبب فساد طريقته في تلقي المعلومات الدينية من عوام الناس الذين يقابلهم في مكة.[1]

وهكذا كان دأب بعض المستشرقين على ربط بعض الشعائر الإسلامية بدياناتهم، أو ببعض مظاهر وعبادات الجاهلية التي وجدت في بلاد الفرس وجزيرة العرب قبل الإسلام، فهم " يسقطون ما مرت عليه دياناتهم من تغيير وتحريف، وصلواتهم من تطور، ثم يسقطون ذلك على الإسلام وعباداته".[2]

ومع ثناء "بيرتون" على مشاهداته للكعبة إلاَّ أن نظرته المحتقرة للمسلمين ووصفهم بالبؤساء لم تفارقه وهو ينظر إليهم وهم يمدون أيديهم لأعلى حتى تمس كل جزء من أجسادهم الكعبة، ويتعلقون بأستار الكعبة يبكون في مواقف الدعاء والخشوع.[3]

ثانياً: شعائر الحج والعمرة في كتب الرحالة المستشرقين:

-شعيرة الطواف والسعي:

(1) ينظر: المرجع السابق ، (75/3).

(2) موقف المستشرقين من العبادات في اسلام من خلال دائرة المعارف (الإسلامية)، رسالة دكتوراه للدكتور: محمد بن سعيد السرحاني، (92).

(3) ينظر: رحلة بيرتون، (47/3).

لقد كان مشهد الطواف بالبيت وإقامة الصلاة فيه من المشاهد التي لا تُنسَ من ذاكرة الرحالة، فالأعداد الكثيرة الخاشعة المتأثرة، المختلفة البلدان واللغات والأجنس تؤثر في نفس الرحالة. [1]فيؤدي الحجاج شعيرة الطواف في صباح كل يوم أو مسائه حرصاً على فرصة وجودهم في مكة، أما أهل مكة فيؤدون الطواف مرات عديدة. [2]

وكثيراً ما حركت مشاعر المسلمين وتأثرهم حال قيامهم بمشاعر الحج المكنونات العميقة في نفوس الرحالة المستشرقين، فدونوا ذلك في سطور رحلاتهم، وبين كلمات وصفهم لتلك المشاعر، حتى الرحالة العسكري "عبد العزيز دولتشين" والذي بخل بذكر أي ملمح للمشاعر التي فاضت على نفسه وقت الحج نظراً لطبيعة رحلته والتي تعتبر تقريراً لحكومة روسيا، لكن حين بدأ بالطواف لم يستطع كتمان التأثير الذي وجده في نفسه بعبارات مقتضبة بقوله:" الانطباع عن الطواف عميق وعجيب جداً، وهو من الانطباعات التي تندر معاناتها في الحياة".[3]

ويشير "جون كين" إلى حرص المسلمين على القيام بالحج في السنة التي يكون فيها يوم عرفة موافقاً ليوم الجمعة.[4]

ويحاول "بيرتون" أن يدافع عن رمي بعض شعائر الحج بالوثنية، فيقول: "لا أستطيع أن أتحدث عن مناسك الحج عند المسلمين بعداء، فالشعائر الدينية المتعلقة بالكعبة- وهذا حقيقي- تقلل كثيراً من كل ميل للوثنية.. لكن أين هي الأمة- سواء في الشرق أو الغرب التي استطاعت أن تخلص عقائدها من بقايا الوثنية القديمة..

(1) ينظر: مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، إلدون رتر، (266/1).
(2) ينظر: الحج إلى مكة- الخبرة الهندية (1500م-1800م)، مايكل. ن. بيرسون، (248-249).
(3) الحج قبل مائة سنة، يفيم ريزفان، (72).
(4) ينظر: ستة أشهر في الحجاز، جون فرايركين ، (113).

فالفكر الديني الإنجليزي مليء بالطفيليات الوثنية.. أمَّا في مكة فحتى البدوي البسيط يعلم عند طوافه بالكعبة أنه لا يعبدها، وإنما يفعل ذلك أسوة بإبراهيم".[1]

إلاَّ أن "بيرتون" لم يقف عند ذلك، بل أورد الربط بين بعض عبادات الفرس وعبادة الشمس وبين الطواف، وتحدث عن نسبة تسمية زمزم للفارسية، بل تجاوز الأمر حدوده بجزمه عن مؤرخي الإسلام أن نبي الله إبراهيم كان يعبد الكواكب [2]

أما ركن السعي بين الصفا والمروة فقد رأي فيه "ليون روش" عبادة مضنية، للمسافة الطويلة التي بين الصفا والمروة،[3] أما "كوتلمون" فقد انتابته حالة من الخشوع جعلته يفقد الإحساس بالتعب والجوع والظمأ. [4]

وقد كان ممّا يبهر الرحالة ويجعلهم يتأملون طويلاً ازدحام الناس من الرجال والنساء في صحن الحرم مع تعدّد أشكالهم، وأعراقهم، ولباسهم، وانشغالهم بأنواع العبادة من طواف، وصلاة، ودعاء، يقول "ليون روش": " كان مشهد الناس وهم يطوفون حول الكعبة مساءً، تحت ضوء القناديل، ويرددون أدعيته بصوت مرتفع، مشهداً مهيباً يبعث على التقى".[5]

أما الرحالة "بيتس" فقد أثار تعجبه رؤية علامات التأثر الصادق من المسلمين حين دخولهم للمسجد الحرام وتأديتهم لنسك الطواف ووصف أولئك المتعبدين بالكائنات البائسة.[6]

---

(1) رحلة بيرتون، (87/3).

(2) ينظر: المرجع السابق، (37/3، 42، 97).

(**3**) ينظر: اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ليون روش، (104). وينظر

(4) رحلتي إلى مكة، جيل –جرفيه كورتلمون، (74).

(5) اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ليون روش، (108) وينظر: رحلة بيرتون (46/3- 47).

(6)ينظر: رحلة جوزيف بتس، (45).

وهكذا تختلف مواقف الرحالة أمام إظهار العبادات في مكة وهي الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة بين متأثر خاشع، وبين من يرى فيها مزيداً من التعب والضنى، وبين مستخف بمشاعر الطائفين وخشوعهم، وبين مشارك لهم في حالة الخشوع والتأثر، على أن تلك الأحوال لا يلزم أن تكون مستمرة في خشوعها ونقائها.

-الوقوف بعرفة:

يبلغ تأثر "علي باي العباسي" مبلغه من مناسك الحج يوم عرفه، حين يرى الجموع من الحجاج من كل البلاد في عرصات عرفة، يجأرون إلى الله بالدعاء، في مشهد مهيب بالغ التأثير، والذي فيه يسجل "علي باي" تأثر الناس وشدة إخباتهم ودعائهم في موقف عرفة، وتأثره لذلك رغم بعده الكبير عن جو الإيمان الذي يطوف بهم، ومن يهد الله فهو المهتد، فيقول واصفاً ذلك:" انحنت عند صلاة العصر آلاف الظهور انحناءة واحدة، لم أكن أعرف واحداً منهم.. وبقيت منتصباً لكنني متأثرٌ في أعمق أعماقي لصورة إله الطبيعة المدهشة دون وساطة من أية شعيرة أمام الله".[1]

ويواصل الرحالة "فيلبي" وصف مشهد التأثر الذي يراه على الواقفين بعرفة خلال خطبة يوم عرفة، وحين يُذكر الناس بحجة الوداع التي قام بها النبي ﷺوعليهم لباس الخشوع و البكاء والتأثر، " وبدأ المرء يشعر وحدة بينه وبين إخوته المصلين، بنوع من الجلال لمناسبة قُدرَ لها أن تُحيي في نفوس الناس قصة وحي بلغ ذروته في هذه البقعة بعينها منذ قرون طويلة خلت لإكمال الدين الذي انتشر في الفترة الفاصلة بين المناسبتين إلى أماكن نائية خارج حدود الجزيرة العربية، ليكون نوراً يهتدي ملايين وملايين في آسيا وإفريقيا، بل وأوروبا أيضاً".[2]

(1)علي باي العباسي "مسيحي في مكة"، (232).
(2)حاجٌّ في الجزيرة العربية، هاري سانت جون فيلبي، (33).

أما "ليون روش" فقد أعرض عن الكلمات صفحاً، ورأى أنها ستعجز عن وصف مشهد الناس في عرفة، فيقول:" هل يمكن وصف مشهد مماثل؟ لن أحاول ذلك لأنني لو فعلت سأقلل من عظمته، وأنتقص من روعته".[1]

ويحرك مشهد جموع الحجاج في عرفة التساؤل عن سبب مجي أولئك الحجاج إلى مكة عند "جون كين" فيقول:" أناس كثيرون لا حصر لهم على مسافة ميل ونصف، فكرت لحظتها في تلك البلدان التي قدموا منها، وما جلبهم إلى هنا، ولم يسعني أن أمنع شعوراً بالخشية والرهبة اجتاحني، وثار في نفسي سؤال واحد: هل يمكن أن يكون كل ذلك بلا فائدة، وأن كل ذلك إيمان عبث؟ فإذا كان كذلك فمن الأسهل أن يفقد الإنسان إيمانه في كل شيء مماثل".[2]

وبعد ذهاب صدمة الذهول الأولى بسبب مناظر التأثير والخشوع في عرفة، يرجع بعض الرحالة إلى حالته الحقيقية كمراقب عن الحجاج ومشاعر الحج، كما يظهر ذلك في حديث "جون كين" بقوله: "كان الناس يظهرون أشد العواطف تأثيراً، وغلبت على بعضهم حالة من الهياج والاضطراب الهائل، لقد تحول المكان إلى حالة كاملة من السُّعار المطبق الراعد، غمرني شعور غامض من الخوف وربما من الرعب بصفتي مراقباً خارجياً غير مكترث لهذه الأحداث، وشعرت بأنني العاقل الوحيد بين ثلاثمائة ألف من المجانين الممسوسين، لكني بأي حال شاركتهم الصراخ، ولوحت بالقطعة العلوية من ملابسي، ورحت أتراكض هنا وهناك حتى أصبحت واحداً من ذلك الحشد الغريب".[3]

(1) اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ليون روش، (164).
(2) ستة أشهر في الحجاز، جون فراير كين، (123).
(3) المرجع السابق، (125-124).

وهكذا لا بد أن تأتي حالة المكاشفة لدى الرحالة، فيعلن مشاعره ونظراته عن المسلمين وعباداتهم، واحتقاره لهم ولها، وتأتيه نزعة التعالي الغربي، والتي تطغى على بعض أحكامه، فيظهر علو تعاليمه وقيمه على ما لديهم،﴿ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴾ [الكهف: ١٧].

ومن أشد ما يكون بُعداً عن الحقيقة، القول بأن شعائر الحج في الإسلام هي ذاتها التي في الجاهلية لم يضف عليها شيء، بل لقد دخلت بكليتها في الدين الجديد كما يقول "عبد العزيز دولتشين". فيكف يقارن الإسلام بالجاهلية التي ما كانت صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية كما أخبر الله عنهم، والذين أشركوا مع الله غيره في أمور حجهم، فكانوا يقولون "لبيك لا شريك لك إلا إلهاً هو لك تملكه وملك"، وهم قد أحدثوا في الحج ما لم يكن من ملة إبراهيم كمثل اختصاص أهل مكة بعدم الخروج إلى عرفة لأنها ليست من الحرم، وغير ذلك.

بل إن اختيار مكان البيت و بناءه والأذان بالحج، لم يكن من أمر الجاهلية في شيء، بل كان من فعل إبراهيم الخليل والذي أمر الله بذلك، كما قال تعالى:﴿ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ

لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: 26 – 29].

فأي التقاء بعد ذلك بين شعائر الحج والجاهلية أو اليهودية أو النصرانية محال، بل إن كل ما أحدثه أهل الجاهلية في الحج من الطواف بالبيت عراة، أو ترك الوقوف بعرفة لأهل مكة، أو انتظار شروق الشمس للدفع من مزدلفة قد أبطله الإسلام.

إن ادعاء صلة شعائر الحج في الإسلام أو الديانات الأخرى ليست بدعاً من قول الرحالة بل قد سبقهم مستشرقون زعموا مثل زعمهم، وكأنهم تواصوا بذلك القول، ولعل المكانة المؤثرة التي يمثلها بيت الله الحرام وما يقام فيه من الشعائر، وتأثيرها في نفوس المؤمنين، من الأسباب التي حركت كمائن وضغائن المستشرقين، مما دفعهم إلى الطعن في الإسلام، ومحاولة التشكيك في كمال عباداته وشعائره.[1]

- المبيت بمنى ورمي الجمرات وتمام الحج:

أما في منى فإن مشاهد الحجاج واجتماعهم في واديها، وإقامتهم فيها أيام الحج كان من المشاهد التي توحي بالعظمة في نفس الرحالة "كورتلمون".[2]

وقد رأى "علي باي" أن شعيرة رمي الجمرات تكون برمي الجمرة والتي هي بناء يرمز لبيت الشيطان –كما يقول–، ثم يسترسل في ذلك بأن هذا البناء الغريب الشكل – أي الجمرات– ترمي عليه جموع لا تعد ولا تحصى من الحجيج الحجارة، ثم يتهكم بذلك بأن الشيطان لما كان ماكراً وحقوداً بنى بيته في مكان ضيق لا يزيد اتساعه على عن أربعة وثلاثين قدماً.[3]

(1) موقف المستشرقين من العبادات في اسلام من خلال دائرة المعارف (الإسلامية)، لفضيلة الدكتور: محمد بن سعيد السرحاني، (637-636).

(2) ينظر: رحلتي إلى مكة، جيل –جرفيه كورتلمون، (105).

(3) ينظر: رحلة إسباني في الجزيرة العربية، رحلة دومنجو باديا العباسي، (160)، (172-171). وينظر: بلاد العرب القاصية، بيتر برينث، (101).

وليس ثمة بيت للشيطان في منى، أو تصوير له، بل هو موضع رمى فيه نبي الله إبراهيم – عليه السلام– الشيطان، وشعيرة رمي الجمرات قد فرضت على الناس لحكم جليلة من أعظمها إقامة ذكر الله عز وجل، والاقتداء بنبي الله إبراهيم الخليل –عليه السلام– في ذلك بإعلانه عداوة الشيطان ومخالفة أمره، ورميه، ومنابذته، فعن ابن عباس –رضي الله عنهما– مرفوعاً قال: (لما أتى إبراهيم خليل الرحمن المناسك عرض له الشيطان عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له في الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض). قال ابن عباس: (الشيطان ترجمون، وملة أبيكم تتبعون)[1].[2]

ويؤكد الإمام الغزالي الأثر الكبير للحج، وما فيه من امتثال لطاعة الله ومحبته، فيقول: "الشوق إلى لقاء الله عز وجل يُشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة، والبيت مضاف إلى الله عز وجل، فالحري أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة، فضلاً عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل..وأما رمي الجمار فاقصد به الانقياد للأمر؛ إظهاراً للرق والعبودية، وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه، ثم اقصد به التشبه بإبراهيم – عليه السلام– حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة، أو يفتنه بمعصية، فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة؛ طرداً له وقطعاً

(1) أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1411هـ، كتاب المناسك، باب أول كتاب المناسك، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، (638/1[1647]). وأخرجه الإمام البيهقي في كتاب شعب الإيمان، تحقيق: مختار أحمد الندوي، طبعة مكتبة الرشد، الطبعة: الأولى، 1423هـ، كتاب المناسك، باب الوقوف يوم عرفة وما جاء في فضله والأصل في رمي الجمرة والذبح، (506/5).

(2) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ: محمد الأمين الشنقيطي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1417هـ، (324/3).

لأمله، فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه، وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان، وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي، ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه، وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به، فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان، واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان، وتقصم به ظهره، إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى، تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه". (1)

وتتوالى ملاحظات الرحالة للحجاج في كل شؤونهم وقت الحج حتى في تسجيل مشاعر فرحتهم بإتمام الحج، حيث يقومون بإرسال البرقيات إلى أهليهم يبشرونهم بإتمام حجهم وسلامتهم، بمشاعر يملؤها الفرح التي تلاحظه العيون. (2)فالحج لم يكن نزهة أو سياحة يسيرة، بل كانت تحديات لمخاطر الطريق واعتداءات الأعراب، وتخطي الأمراض المميتة والتي يكون وصولها إليهم أمراً محتملاً، فحق لهم الفرح بإتمام أمنياتهم بإكمال حجهم.

وعندما يتم الحاج مشاعر حجه يطلق على المرء لقب (الحاج) قبل اسمه أو بعده، ويتميز في حياته بعد ذلك برداء خاص يلبسه على رأسه والذي يختلف من بلد لآخر، ففي مصر يعتمرون العمامة الخضراء وفي زنجبار يرتدون قبعات من القش الملون وعمامات تشابه ما يعتمر المطوف.(3)فالوصول إلى لقب الحاج، وإتمام الحج طاعة لله، هي ختام أماني الرحالة، الذين يرغبون بعد ذلك في الوصول إلى بلاد المسلمين

(1) إحياء علوم الدين، للإمام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، (267/1).
(2) ينظر: الحج قبل مئة سنة، يفيم ريزفان، (74).
(3) ينظر: رحلة الحاج المعاصر إلى مكة، آرثر جون وافل، (174).

واكتشافها، بعيداً عن المخاوف والمشاق.وهكذا اهتم الرحالة بتدوين انطباعاتهم ووصفهم للكعبة، وهم على ذلك بين مقدر لمشاعر المسلمين ومستحقرٍ لها.

المبحث الرابع:

نظرة الرحالة المستشرقين للشعائر التعبدية بمكة المكرمة

تعددت رؤى الرحالة للشعائر الإسلامية، واختلفت نظراتهم إليها وإلى المسلمين، مسجلين تلك النظرات وما يتبعها من استنتاجات ترجع إلى أصولهم الدينية، أو ثقافتهم الأوربية، والتي تتقلب بين متأثر، أو مستهزئ متعجب، ولعل ذلك يظهر لنا في النقاط التالية:

أولاً: جهل الرحالة بأحكام الحج والعمرة:

ظهر لدى العديد من الرحالة جهل بأحكام الحج والعمرة، والحديث عن بعض القضايا المبتدعة، كذكر الأوراد والأدعية التي لم تأت بها الأحاديث الصحيحة، والقيام بغسل حصى الرجم، والدعاء بعد الحلق وغير ذلك ممّا ليس له أصل في الشريعة أو التي لا يمكن تصور وقوعها؛ كصلاة العيد في مزدلفة.[1]

ويذكر الرحالة "ليون روش" في حديثه عن الحج في الإسلام أن "غاية الحج هي الكعبة، وأن هذا اسم أطلقه عرب الجاهلية على بعض الأوابد التي كانوا يطوفون حولها مبتهلين إلى آلهتهم"[2].

وفي الجانب الآخر يرى الرحالة "علي باي العباسي" أن الوقوف على جبل عرفات هو المقصد الرئيس للحج لدى المسلمين، ويؤكد على صحة ذلك بقول: "

(1) ينظر: رحلة بيرتون (3/69- 71).

(2) ينظر: مهمة سرية في الحجاز، ليون روش، (43). ينظر: رحلة إسباني في الجزيرة العربية، دمنجو باديا، (214).

فعدد من العلماء صرّحوا بالقول: بأنه إذا أتمّ الوقوف بعرفات، فإنّ الذهاب إلى بيت الله الحرام يكون زيادة في الأجر فالحج عرفة"[1].

ورؤية البيت والطواف به لا شك أنه مهبط آمال الحجاج في مكة، لكن الحج يبتدئ من نية الإحرام، وعند رؤيتهم للكعبة تبدأ شعيرة الطواف وهي من أركان الحج، لكن الحج له أركان غيرها معلومة فمن ترك شيئاً منها بطل حجه ولو طاف بالكعبة، كما أن الوقوف بعرفة والاقتصار عليه لا يتمّ به الحج، بل لا بد من الإتيان بجميع أركانه وواجباته الأخرى، " فأركان الحج: الوقوف بعرفة، وطواف الزيارة، فلو تركه رجع معتمراً، والإحرام، والسعي بين الصفا والمروة. وواجباته الإحرام من الميقات، ووقوف من وقف بعرفة نهاراً إلى الغروب، والمبيت بمزدلفة إلى بعد نصف الليل إن وافاها قبله، والمبيت بمنى، والرمي وترتيبه، والحلق أو التقصير، وطواف الوداع ..فمن ترك الإحرام لم ينعقد نسكه ومن ترك ركناً غيره أو نيته لم يتمّ نسكه إلا به، ومن ترك واجبا فعليه دم"[2].

ويظهر في العديد من المواضع جهل "بوركهارت" بأحكام الحج مع جزمه بصحة معلوماته، فيزعم أن الشرع يحظر على الحاج أن يتدثر في الليل بغير الإحرام، وأنه أوجب الإتيان بعمرة بعد أداء الحج، والقول بأن من الأماكن التي يتحتم على الحاج زيارتها زيارة مبنى العمرة في التنعيم، وكذلك وجوب صلاة ثماني ركعات على من دخل الكعبة.[3].

وكل ذلك خلاف ماجاء به الشرع، فالصلاة داخل الكعبة والحجر مشروعة، لكن الحديث عن وجوبالصلاة ثماني ركعات لم يأت به الدليل، وكذا غسل الحصى قبل

(1) رحلة أسباني في الجزيرة العربية، دمنجو باديا، (114).

(2) منتهى الإرادات، لتقي الدين محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي الشهير بابن النجار، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبعة: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1419هـ، (2/173-174).

(3) ينظر: رحلات في شبه الجزيرة العربية، جون لويس بوركهارت، (86،90،164،165).

رميه، وكذا المنع من التدثر في الليل بغير الإحرام، ولعل ذلك مما تلقاه الرحالة من أفواه العامة، من غير طلب دليل[1].

و"بوركهارت" وافق الرحالة "علي باي العباسي" " في ذكر وجوب العمرة بعد الحج على الحجاج، وأنها من شعائر الحج، لكن "علي باي" يزيد على ذلك بقوله: " يُروى في الحديث أن هذه الإضافة هي من فعل عائشة أحب زوجات نبينا الكريم ﷺ إلى قلبه"[2].

والصحيح أن العمرة بعد الحج ليست من شعائر الحج، وقد جاء في الحديث الصحيح إذن النبيﷺلعائشة بالعمرة بعد الحج، في حجة الوداع وذكرته أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– بقولها: (خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر إلا الحج، حتى جئنا سرف فطمثت، فدخل علي رسول الله ﷺ وأنا أبكي، فقال: (ما يبكيك؟). فقلت: والله، لوددت أني لم أكن خرجت العام، قال: (ما لك؟ لعلك نفست؟). قلت: نعم، قال: (هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، افعلي ما يفعل الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري). قالت: فلما قدمت مكة، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (اجعلوها عمرة). فأحل الناس إلا من كان معه الهدي، قالت: فكان الهدي مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وذوي اليسارة، ثم أهلوا حين راحوا، قالت: فلما كان يوم النحر طهرت، فأمرني رسول الله ﷺفأفضت، قالت: فأتينا بلحم بقر، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: أهدى رسول الله ﷺ عن نسائه البقر، فلما كانت ليلة الحصبة، قلت: يا رسول الله، يرجع الناس بحجة وعمرة وأرجع بحجة؟ قالت: فأمر عبد الرحمن بن أبي بكر، فأردفني على جمله، قالت: فإني لأذكر، وأنا جارية حديثة السن،

(1) ينظر: صفة حج النبي ﷺ ، عبد العزيز الطريفي، (181).
(2) رحلة إسباني إلى الجزيرة العربية، دومنجو باديا، (176).

أنعس فيصيب وجهي مؤخرة الرحل، حتى جئنا إلى التنعيم، فأهللت منها بعمرة، جزاء بعمرة الناس التي اعتمروا)[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله –: "وأما الخلاف فيمن أراد أن يجمع بينهما –أي الحج والعمرة–في سفرة واحدة، إما لعجزه عن سفرة أخرى؛ أو لأنه مشغول عن سفرة أخرى بما هو أهم من الحج من جهاد ونحوه، أو لأنه لا يمكنه قصد مكة إلا في أيام الموسم لعدم القوافل، أو خوف الطريق، ونحو ذلك: فإن اعتماره قبل الحج أفضل من أن يعتمر من التنعيم في بقية ذي الحجة؛ لأن أصحاب النبي ﷺ كلهم فعلوا كذلك، ولم يعتمر أحد منهم بعد الحجة في تلك السفرة إلّا عائشة خاصة، ولم يقم النبي ﷺ بالمسلمين بعد ليلة الحصبة ولا يوماً واحداً، بل قضى حجه ورجع قافلاً إلى المدينة، وكذلك عمر كان، وكانوا ينهون عن العمرة بعد الحج في ذلك العام كما ينهون عنها قبله" [2].فكان إذن النبي ﷺ لعائشة دليلاً على جواز العمرة بعد الحج، ولم تضف عائشة –رضي الله عنها – أي شيء في الدين، وما ينبغي لها.

والرحالة "إدون رتر" يقول بأن الحاج عليه الجهر بالنية واستقبال مكة في حال الإحرام، وأن كفارة تقليم ظفر أو ظفرين للحاج وشل قَوم أي: ثمانية جوالين من القمح.[3]وتقليم الظفر والظفرين من لدن المحرم فالصحيح فيه ما ذكره بعض العلماء بأن كفارة ذلك مد من طعام، يتصدق به على المسكين، ومن العلماء من ضعف هذا

(1) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران، وجواز إدخال الحج على العمرة، ومتى يحل القارن من نسكه، (2/ 873[1211]).

(2) شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة، للإمام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية تحقيق: د. صالح بن محمد الحسن، طبعة مكتبة الحرمين، الطبعة: الأولى، 1409 هـ، (531/1).

(3) ينظر:مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، إلدون رتر، (143/1)،(154/1)،(156/1).

القول لعدم الدليل، أما ما ذكره الرحالة واختصه من الكفارة على ارتكاب ذلك المحظور فلم أجده فيما وقعت عليه من كتب الفقه الإسلامي.[1]

كما أن من الأخطاء التي يذكرها الرحالة من وجوب التلفظ بالنية وقت الطواف، واستقبال القبلة أثناء ذلك ووجوب العمرة على الداخل لمكة من غير الحجاج، وأن ماء زمزم عند شربه له دعاء حتمي وكل ذلك مما لم يرد به الدليل.ومثله قول علي باي العباسي: بأن دخول الحجاج إلى مكة يجب أن يكون سيراً على الأقدام.[2]فكل تلك دعاوى ليس عليها دليل، وربما تلقاها الرحالة من العامة، أو المطوفين والذين ليسوا هم أهلاً لأخذ الدين عنهم.

ويبقى أن كثيراً من المعلومات الخاطئة التي أوردها بعض الرحالة "كبيرتون" بصيغة الجزم بصحتها هي معلومات غير صحيحة في الشريعة الإسلامية من جهة، وتشير إلى المصدر الذي تلقاه "بيرتون"، وهو إمَّا سؤال عامة الناس، أو من يخدمه ويلتقيه من المسلمين، أو أن يختلقها من تلقاء نفسه؛ كمثل وصفه إطعام حمام الحرم بانه من واجبات الصالحين الأتقياء، وبأن الحمام لا يظهر على سطح الكعبة، وأن ذلك يعتبر معجزة، أو أن هناك أداة موجودة على سطح الكعبة؛ لمنع الحمام من الوقوف عليها.[3]

(1) ينظر: الشرح الكبير على متن المقنع، للإمام: أبي الفرج عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة، دار الكتاب العربي، أشرف على طباعته: محمد رشيد رضا، (3/ 264). وينظر: الشرح الممتع، لابن عثيمين، (7/120-121).

(2) ينظر: رحلة إسباني في الجزيرة العربية، دومنجو باديا، (137) .

(3) ينظر: بيرتون، (3/71).

كما أورد "بيرتون" العديد من الأساطير عن حواء وأنها أهبطت من الجنة إلى عرفات وآدم في سيلان، وبعد بحث آدم عن زوجه وصل إلى جبل الرحمة حيث كانت حواء تردد اسمه، وبذلك "عرف آدم موضعها وبذلك اتخذ المكان اسمه عرفات" [1].

وما يذكره الرحالة قد ذكره بعض العلماء بأن آدم اهبط في الهند وحواء بجدة ثم التقيا في موضع عرفات فسميت بذلك، وقيل غير ذلك في تعليل تسميتها، وأظهر الأقوال في تسمية عرفات أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع، قال الإمام ابن جرير الطبري بعد ذكره للأقوال في موضع هبوط آدم وحواء إلى الأرض: "وهذا مما لا يوصل إلى علم صحته إلا بخبر يجيء مجيء الحجة، ولا يعلم خبر في ذلك ورد كذلك"[2].

ومن الأخطاء الظاهرة قول الرحالة "إلدون رتر" أن المسلم إن لم يقف أثناء الخطبة في عرفة فحجه غير صحيح.[3]

وفيما ذكر "إلدون" عن يوم عرفه لأنه لا دليل عليه، بل المراد بالوقوف في عرفة هو وجود الحاج في أيّ جزء من أرض عرفة في الوقت المحدد للوقوف فيها على أيّ حال كان قائماً أو نائماً أو غير ذلك، وليس من أركان الحج وواجباته شهود خطبة عرفة أو الوقوف في أثنائها.[4]

والخطبة يوم عرفها ليست بواجبة بل سنة، ولم يأت دليل أو نقل عن أهل العلم بأن الوقوف في أثنائها واجب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله-: " والسنة أن يخطب بهم الإمام ببطن عرنة موضع المسجد قبل الوقوف يخطب ثم يصلى وهذه

(1) المرجع السابق، (58/3).

(2) تاريخ الرسل والملوك، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة دار التراث، الطبعة: الثانية، (122/1). وينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للإمام أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى:1422 هـ، (274/1).

(3) ينظر: مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، إلدون رتر، (216/1).

(4) ينظر: الفقه الميسر، تأليف: أ.د. محمد الموسى و أ.د. عبد الله المطلق و أ.د. عبد الله الطيار، طبعة مدار الوطن، الطبعة الثانية،1433هـ، (59/4).

الخطبة سنة مجمع عليها قال أحمد خطبة يوم عرفة لم يختلف الناس فيها وقد رواها عن النبي ﷺجابر وابن عمر كما تقدم، وابن عباس وجابر بن سمرة ونبيط بن شريط والعداء بن خالد وغيرهم، وسلمة بن نبيط عن أبيه وكان قد حج مع النبي ﷺقال: (رأيته يخطب يوم عرفة على بعيره)[1]رواه الخمسة إلا الترمذي"[2].

ثانياً: حال الرحالة في مواقف الخشوع والتأثر في مشاهد الحج:

اختلفت أحوال الرحالة أمام مشاهد الحج المؤثرة، والتي وقع الناس فيها بين متأثرين مخبتين لله عزّ وجل، وبين راجين عفوه وغفرانه، ما بين متأثر بأحوالهم، ومتهكم أو ساخر، فحين دخل الرحالة "علي باي العباسي" الحرم وكان دليله يتكلم في الحرم، وقد أرخى الليل سدوله، وصف ذلك المشهد من أمام الكعبة بالمهيب المؤثر، فقال: "في هذه اللحظات المواتية مع هدأة الليل، ودليلنا الذي كان يتكلم أمامنا بكل ذلّ وخُشوع، شَكَّل أمامي لوحة مهيبة سوف لن تُمحى من مُخيلتي إلى الأبد"[3].

وفي عرفة رأى "بيرتون" ازدحام الموقف بالبدو والسلفيين من وقت باكر صباح يوم عرفة ليسمعوا الخطبة، وهو يوم يُكثر فيه الحجاج من الابتهالات والدعاء بدموع وخشوع كما يذكر "بيرتون" هذا المشهد الذي رآه في عيون رفقته وخادمه، إلاَّ أنه استغرق في هذا الموطن المؤثر بالنظر إلى فتاة عربية، ووصف ملامحها مفصلاً في ذلك، ومسترسلاً في ملاحظتها والنظر إليها، ويروي أحداث تبادل النظرات والإعجاب، في

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (18/31 [18721])، والإمام أبو داود في سننه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، كتاب المناسك، باب: الخطبة على المنبر بعرفة، (189/2[1916])، والإمام ابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الخطبة في العيدين، (409/1 [1286])، وصححه الألباني.

(2) شرح العمدة، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، 1436هـ، (228/5).

(3) صفة حجة النبي ﷺ، عبد العزيز الطريفي، (43).

يوم مؤثر في نفوس المؤمنين، حتى عند الرحالة الغربيين غيره، أما "بيرتون" فلم يحرك المشهد لديه مكامن هيبة أو تأثر أو اختزام، كما لم يراع حرمة مكة ظاهراً والتي يذكر في أحيان كثيرة انشغاله فيها بشرب الشيشة أوقات فراغه. (1)

أما الرحالة : "علي باي العباسي" فقد رأى في موقف يوم عرفة مشهداً عظيماً ومؤثراً، يرى فيه إخبات الناس وصدق دعواتهم، وحسن مؤاخاتهم مع تباعد الأوطان والأجناس والألوان، فيقول: "وفي جبل عرفات فقط، يمكن أخذ فكرة حول المشهد الهائل الذي يُمثله الحج لدى المسلمين، إنّه حشد لا يمكن إحصاؤه من البشر، من جميع الأمم ومن كل الألوان، يَصلون من أقاصي الأرض، مُجتازين أنواع المخاطر والصعاب المتعددة؛ كي يعبدوا مُجتمعين إلهاً واحداً هو إله الفطرة، فساكن القوقاز يمد يد الأخوة إلى الأثيوبي أو إلى الأسود الغيني، والهندي والفارسي متآخين مع البربري والمغربي، فكل واحد منهم ينظر إلى الآخر على أنهم إخوة، أو كأفراد عائلة واحدة معتصمين بأواصر الدين، يتكلمون جُزءاً كبيراً أو يفهمون قليلاً أو كثيراً من نفس اللغة لغة الجزيرة العربية المقدسة"(2).

ويسترسل "علي باي" في بيان ما يوحيه مشد يوم عرفة من معان عظيمة عن الدين الإسلامي في جلاله وبساطته، فيقول:" أبداً ليس هناك عبادة تُقدم عرضاً لمفاهيمها أكثر من هذه البساطة واللطف والعظمة بل أكثر من هذا.. ليس هناك وسيط بين الإنسان وربه، فكل البشر متساوون أمام الخالق، وكلهم متحابون مقتنعون بأن أعمالهم فقط، هي التي تبعدهم أو تقربهم من الله"(3).

(1) ينظر: رحلة بيرتون (3/64- 65).
(2) رحالة أسباني في الجزيرة العربية، دمنجو باديا"، (163-164).
(3) رحالة أسباني في الجزيرة العربية، دمنجو باديا"، (164).

كما يسجل الرحالة كل اللحظات والملاحظات في الحج، ويصفون كذلك مشاعر بعض المسلمين من عدم مبالاتهم في أوقات تلك الشعائر والمشاهد العظيمة، وهي مشاهد تظهر من بعض الحجاج في المواطن المتعددة، بسبب تقصيرهم وذنوبهم، وبُعدهم عن القيام بمقاصد الحج وآدابه العظيمة والله المستعان. (1)

ويقابل موقف التأثر والخشوع، مواقف المبالغة والاهتمام بإيجاد صور للتناقض في الشعائر أو في أحوال الناس في الحج، عبر معايير انتقائية مزدوجة، فحين رأى "بيرتون" تعدد مراكب الناس، فالأغنياء وأصحاب المكانة يركبون الخيول الجميلة، والبدو يركبون الجمال، ومعظم الحجاج من ذوي الثراء يركبون الحمير بينما الفقراء والمتسولون، والعساكر يمشون، أدهشه هذا المشهد ليعبر أنه من المناظر الغاصة بالتناقض كالعادة.(2)

فهل تناقضها في وجود هؤلاء الناس بتعدد طبقاتهم في صعيد واحد، ولأجل عمل واحد، أو في تعدد مراكبهم التي لا تثير إلاَّ حفيظة الفكر المادي في تناقضاته وبعده عن التوازن، فالله عز وجل قد جعل بعض الناس لبعض سخريا، كما قال تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فالناس متفاوتون في المراتب والأرزاق، وهم لذلك مسخرون لبعض وللتعايش مع بعض سعياً في طلب الرزق، ولتنتظم الحياة على توازن وتكامل، فيعمل الفقير مع الغني، والعامل مع صاحب الصنعة العالم بها، فأين يكون التناقض، فالغني سيظهر غناه في مركبه ومسكنه وملبسه

(1) اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ليون روش، (81).
(2) ينظر: رحلة بيرتون، (51-52).

ولا يضيره ذلك إلا إذا تجاوز الأمر إلى حد الإسراف والكبر والخيلاء، " وكل الخلق مسخرون للخلافة في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات، والتفاوت في الأعمال والأرزاق"[1].

وبجانب مبالغات "بيرتون" تظهر المبالغة في الوصف إلى حد ذكر غير الموجود أصلاً عند "فارتيما" في وصف مشاهداته حال دخوله للمسجد الحرام، وزعمه أن كل أجزاء المسجد حتى الجدران والأعمدة مغطاة بالذهب. [2]

ولا ينفك بعض الرحالة من الهمز واللمز لمشاعر الحج ففي شعيرة رمي الجمرات يقول "علي باي العباسي":" فكل واحد منا يحمل سبع حصوات نرميها على ما يسمى بيت إبليس، ولاشك أن مكر إبليس هو الذي دفعه لبناء بيته في مكان ضيق جداً تحميه فجاج صخرة، مما جعل معظم الحصوات لا تصل إلى هدفها"[3].

وهم في ذلك الاستهزاء والسخرية يدللون على جهلهم بمقاصد الحج العظيمة، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ:(إنما جعل الطواف والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله).[4]فإقامة ذكر الله، والاستجابة لأوامره هي المقصد الأعظم من رمي الجمار والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، وهو ما غاب عن نظر الرحالة "علي باي العباسي" وشعوره.

(1) في ظلال القرآن، (330/7).
(2) ينظر: رحلات فارتيما، (54).
(3) علي باي العباسي " مسيحي في مكة"، (233).
(4) أخرجه الإمام أبو داود في سننه، كتاب المناسك، باب في الرمل، (179/2[1888])، والإمام أحمد في مسنده، (480/40[24351]).

ثالثاً: التأثر من مشاهد الحجاج وتنوعهم:

من الصور المشرقة التي أضاءت بها كتب الرحالة مواقف التأثر والدموع التي أصابتهم أمام جمال وكمال شعائر الحج، والمشاعر الإسلامية والأخوة بين المسلمين في عرصات مكة، فاختلاف أشكال الحجاج وأجناسهم ولغاتهم وألوانهم توقف عندها الكثير من الرحالة، وأوقفوا أقلامهم لبراعة ذلك المشهد وقلة حدوثه، خصوصاً مع توحدهم في لباس الإحرام، ومثل ذلك الاجتماع الفريد من النادر أو المستحيل وقوعه، يقول "ليون روش": "وسرعان ما انشغلت بمشهد لا يمكن وصفه لتلك الحشود من الحجاج التي تغص بها الشوارع والمحال والمساجد، خلا زيهم من أي تنوع؛ لأنهم كانوا جميعاً يرتدون ثياب الإحرام، لكن يا لتنوع اللغات والأجناس والملامح"(1).

فأمام مشاهد الخشوع، والاختلاف والتنوع في العناصر البشرية وعاداتها ولغاتها، جرت أقلام كثير من الرحالة بسطور مؤثرة، يقول "فارتيما" وهو أول رحالة غربي عايش تلك الجموع: "والحق أقول لكم: إنني لم أرَ أبداً تجمعاً هائلاً احتشد في مكان واحد كما رأيت في مكة خلال العشرين يوماً التي مكثتها في هذا البلد"(2).

وفي صوة أخرى لحال الرحالة فإن العديد منهم لا ينفكون يثنون على قدراتهم العلمية أو شجاعتهم وقوة أبدانهم، في مقابل لمز سواهم من الأمم سواء العرب، أو الترك، أو غيرهم، فيصف "بيرتون" البدو بأنهم كانوا حوله كالقطط البرية، وأنهم كالموميات أمامه حتى أنه يستطيع إزاحة ستة منهم بيد واحدة.(3)

ويصف "فارتيما" المسلمين الذين عاش بينهم في رحلاته، وبعضهم ظل مصاحباً له في العديد من رحلاته، بأشنع الصفات، فحين قرر أن يتحول عنهم

(1) اثنان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، ليون روش، (155).
(2) رحلات فارتيما، (53).
(3) ينظر: رحلة بيرتون، (43/3).

ويرجع إلى البرتغاليين وهو في نهاية مطاف رحلته في الهند، كان متلبساً بالنفاق حيث أظهر أنه مع المسلمين وأبطن خلاف ما اظهر مستغلاً طيبة المسلمين وتصديقهم حين ادعى اسلامه بينهم، لكن تلك المحامد من العفو وحسن الضيافة له والتي تحلى بها المسلمون كانت في نظر "فارتيما" أكبر عيبوهم حين رآهم أغبياء، فيقول:" والمسلمون هم أغبى شعوب العالم"[1]، كما كان يسمي أرضهم التي يريد مغادرتها بأنها" ارض الكلاب".[2]

واستقل "بيرتون"بالقول بأنه لا أحد يستطيع تنفيذ الشعائر بدقة كاملة إلاَّ النبي.[3] وهو بعيد عن الصواب، فالنبيﷺهو الذي علمنا الحج، وقال: (لتأخذوا مناسككم)[4]، وهي شعائر يسيرة قابلة للتطبيق والعمل بها بإذن الله.

كما يسجل بعض الرحالة الروح الأخوية بين الحجاج في يوم العيد، وطيلة أيام الحج، وكيف أن بعض الأغنياء من الحجاج يعطون بعض الفقراء من المال لتمكينهم من شراء أضحية.[5]

وتبقى مشاهد أخوة المسلمين مما لم يجمعهم نسب ولا جنس ولا لغة، شاهدة على عظمة دين الإسلام، وتأليفه لنفوس أتباعه، حتى شهد بذلك المستشرقين أنفسهم ، يقول فيليب حتي: " ولقد ظل الحج على مر العصور أكبر عامل موحد في الإسلام، وأقوى رابطة بين مختلف طبقات المؤمنين، وهو الذي جعل من كل مسلم قادر على الرحلة ولو مرة في عمره، واجتماعات كهذه لها تأثير اجتماعي بين جماعات

(1) رحلات فارتيما، (190).

(2) المرجع السابق، (192).

(3) ينظر: رحلة بيرتون، (23/3).

(4) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا، وبيان قوله ﷺ: «لتأخذوا مناسككم»، (2/943[1297]).

(5) ينظر: جيوفاني فيناني حياته ومغامراته في جزيرة العرب، (153).

المؤمنين الذين يأتون من أنحاء المعمورة، فالحج أتاح للزنوج والبربر والصينين والفرس والسوريين والترك والعرب، الفقير منهم والغني، والرفيع والوضيع، أن يجتمعوا ويتآخوا على أساس الإيمان المشترك، والحق أن الإسلام قد وفق أكثر من أديان العالم جميعاً في القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية، وخاصة بين أبنائه، ولا شك أن الاجتماع في موسم الحج له الفضل الأكبر في تحقيق هذه الغاية".[1]

أما الرحالة محمد أسد ، وهو الرحالة الأوروبي المسلم، فقد كان لمشهد اجتماع الناس وأخوتهم في مكة أثره البالغ على نفسه، فقال :"مشهد الحجيج الذين أتوا من كل فج عميق، أزياء مختلفة في صخب الزحام، وأجساد بنية لصوماليين يلمعون كالنحاس في ملابس صارخة الألوان، وعرب من أعماق الجزيرة العربية، بوجوه نحيلة وبلحى كثة، وخطوات متثاقلة، وآخرون ضخام الأجساد، وأوزبكيون من بخارى مازالوا بملابس بلادهم، من قفطان سميك، وحذاء طويل حتى الركبة على الرغم من جو مكة اللافح، وبنات من جاوة بوجوه مكشوفة، وأعين مثل اللوز، ومغاربة متثاقلو الخطو يتيهون بالبرنس الأبيض، وأهل مكة بملابسهم البيضاء ورؤوسهم المغطاة، وفلاحون مصريون بوجوه تملؤها الإثارة، وهنود في ملابس بيضاء، وعيون سوداء، تتطلع من تحت عمامة ضخمة بيضاء،... وسيدات صينيات مثل فراشات ملوّنة، وخطوات صغيرة، وأقدام دقيقة مثل أقدام الغزلان".[2]

وحتى عند وداع المسجد الحرام لا يغفل الرحالة "بيتس" عن تسجيل أدب المسلمين مع المسجد الحرام فحين وداعهم والخروج من المسجد الحرام يستقبلون الكعبة بوجوههم حتى يخرجون من المسجد، وتفيض عيونهم بالدموع، ويبدون غير

(1) العرب تاريخ موجز، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة1991م، (58).

(2) الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، مؤسسة منتدى الثقافة، الطبعة الأولى1434هـ، (387-388).

راغبين في مفارقة البيت، وتبقى نفوسهم في حالة بكاء وهم يدعون ويتوسلون إلى الله حتى يصلون بيوتهم.[1]

وهكذا فلمشهد البيت والصلاة في المسجد الحرام، ورؤية المسلمين لمشاهد الحج العظيمة في الإقبال إلى مكة ووقوفهم بعرفة، ومواقفهم الخاشعة في الكثير من مواطن الحج، أثره على الرحالة المستشرقين بل والمسلمين من كل موطن، في الماضي والحاضر.

وحول هذا التأثر الخاشع يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: كنت في مصر من بضع سنين، وكانت في الجامعة بعثة من الطلاب تستعد لتمضي إلى الحج، علق بها طالب يعرفه إخوانه شيوعياً، فأبوا عليه الصُّحبة، فقلت للدكتور: أنا أرى أن تأخذوه معكم، فلعل الله قد أذن بصلاحه فبعث هذه الرغبة في نفسه، فاستبعد ذلك، لكنه مع ذلك أخذ برأيي واصطحبوه معهم، ولما رجعوا ولقيت هذا الأستاذ قال لي: لقد كان ما قدَّرت، ولكنه كان شيئاً عجيباً دهش له كل من كان معنا، حتى الطالب نفسه، فإننا ما إن بلغنا حدود الحرم ونزعنا ثيابنا، حتى تبدل نفساً بنفس، كأنما نزع من الثياب دنياه كلها من قلبه، وأفكار السوء من رأسه، وترك الباطل الذي يحيا فيه، وعاد الفتى المؤمن يجهر بالتلبية أكثر من جهرنا، ويخشع لها أشد من خشوعنا، فحسينا ذلك تظاهراً منه لنا، وتزلفاً إلينا، حتى إذا بلغنا باب الحرم، وبدت لنا الكعبة، غلبت عليه حال يستحيل أن تكون تصنعاً وتمثيلاً، وراح يبكي وينشج، حتى لقد أبكانا ثم كان أكثر طوافاً وصلاةً، واستغراقاً في العبادة. قلتُ-أي الطنطاوي-: هذا أثر الحرم في نفس المسلم، وهل في أماني المسلم أكبر من أن يرى

(1) ينظر: رحلة جوزيف بيتس، (63).

تلك المشاهد، ويقف بتلك الأعتاب، فما مسلم يطوف بالكعبة إلا أحسَّ أن وطنه الحقَّ ها هنا لا البلد الذي ولد فيه، وشهد مدارج طفولته وملاعب صباه.[1]

الخاتمة

خلاصة البحث ونتائجه:

1. كان منع المشركين من دخول مكة وبيت الله الحرام محفزاً لرحلة المستشرقين في الوصول إلى مكة المكرمة خصوصاً في فترة الحج، وتحملوا في ذلك الكثير من مشاق السفر والرحلة من بلاد أوروبا البعيدة، واضطر بعضهم إلى التوقف في بعض حواضر الإسلام؛ لتعلم اللغة العربية، وشعائر الإسلام.
2. يُعد الحج من أكبر المظاهر الجاذبة للرحالة للوصول إلى مكة، ومشاهدة شعائره، والنظر إلى مجمع المسلمين في مكة مع اختلاف لباسهم وألوانهم ولغاتهم، مما أودع تأثراً في نفوس بعض الرحالة.
3. اهتم الرحالة المستشرقين بالشعائر التعبدية في مكة المكرمة؛ لكونها معلماً من أبرز معالم الإسلام وعلاقة المسلمين بربهم ودينهم.
4. اهتمام الرحالة المستشرقين بالوقوف على أثر العبادات الإيماني والروحي والأخلاقي على المسلمين؛ يؤكد على مدى أهميتها في بناء الفرد وتنظيم المجتمع المسلم وإحداث التغيير الإيجابي.
5. حظيت الشعائر التعبدية من صلاة وأذان وحج وعمرة وطقوس رمضانية بكتابات واسعة وأوصاف دقيقة ومتنوعة للرحالة المستشرقين في كتاباتهم وأحاديثهم.

(1) من نفحات الحرم، علي الطنطاوي، دار الفكر، 1400هـ، (7-9) بتصرف.

6. تأثر بعض الرحالة بموروثه الديني والثقافي، وجعله حكماً على الشعائر التعبدية الإسلامية، ودليلاً على بطلانها أو تناقضها.
7. تفاوتت مواقف الرحالة حال نظرتهم للحرم أول مرة، وما تبع ذلك من الوقوف في مشاهد الصلاة في الحرم ومناسك الحج، ما بين متأثر ومستهزئ ساخر بالمسلمين وعباداتهم.

التوصيات:

1. أوصي الباحثين بفرز كتابات الرحالة المستشرقين حول الإسلام وفق المجالات المختلفة، والكتابة في كل مجال منها على حدة.
2. الاستفادة من أدب الرحلات في اكتشاف الجوانب الثقافية للبلاد الإسلامية التي زارها الرحالة المستشرقين وكتبوا عنها، فهو معين لم يرده الكثير من الباحثين خصوصاً في جوانبه التعبدية.
3. أوصي الدعاة بالاستفادة من التأثر الإيجابي لبعض الرحالة المستشرقين بالشعائر التعبدية، في أساليبهم بدعوة غير المسلمين إلى الإسلام.
4. أوصي بتصوير مقاطع متنوعة من كل الشعائر الإسلامية وترجمة التعليق عليها إلى عدة لغات، ثم نشرها عبر وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعية في أوساط غير المسلمين، فلعل بعضه يتأثر بها وتكون سبباً في إسلامه.